الفردوس

عبد الرحمن البرقوقي

الفردوس

الفردوس

تأليف
عبد الرحمن البرقوقي

هنـــداوي

الفردوس

عبد الرحمن البرقوقي

رقم إيداع ٢٣٢٧٦ / ٢٠١٤
تدمك: ٥ ٢١٤ ٧٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: وفاء سعيد.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2016 Hindawi Foundation for Education and Culture.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

قصة الفردوس ٧
الأديب يدخل الجنة ٢٧
الأديب يركب زورقًا في الجنة ٣٥
مأدبة جامعة في قصر الشيخ محمد عبده بالجنة ٧٣

قصة الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم، ومنه سبحانه وتعالى نستمد العون والتيسير.

أما بعد؛ فهذه نظرات وفِكَر، آمل أن تكون موفقة بعيدة الأثر، و«ثمرات أوراق» يانعات،[١] أرجو أن تكون حبيبة إلى القلوب سائغات، وشطحاتٌ أشتاتٌ[٢] بين حق وما يشبه الباطل، وجد وما يشاكل الهزل الهازل، ومُنَاقَلاتٌ أبكار،[٣] وضعتها على ألسنة أعلام بررة أخيار، ومثاقفات عذراوات عزوتها إلى أديب أُولع بالأدب العربي القديم، وآثاره العبقريات الأوابد[٤] من نثير ونظيم.

حوال سنة ١٩٠٦م دعاني إليه، المأسوف عليه، إمام اللغة و«البيان» في عصره، الشيخ إبراهيم اليازجي، وكان قد «نظمني وإياه ودٌّ قديم، ولف هواي بهواه عهد كريم»، حتى إذا أجبته ناولني دفترًا مخطوطًا، وقال: هذه رسالة الغفران للمعري، كلفني الوراق الناشر المشهور «أمين هنديه» أن أصححها وأضبطها بالشكل الكامل كي يخرجها بالطبع على هذا الوضع، فنصحت له بأن تقوم أنت بهذه المهمة التي أراها[٥] شاقة مضنية، ولكنك — إن شاء الله — بمثلها زعيم[٦] …

فقرأت الرسالة، ثم توفرت على ضبطها بعد أن اقترحت على الناشر شرحها، فأبى إلا طبعها مجردة من الشرح، فكان، وكان أن سُحرت بهذه رسالةِ الغفران، وكان من أثر هذا السحر أن فكرت في عمل أنحو فيه هذا المنحى، من جهة المظهر والمبنى، لا من جهة المخبر والمعنى، وأحتذي فيه على هذا الحذو البديع، وإن لم يدرك الظالعُ شأوَ الضليع.[٧] فاستخرت الله تعالى فخار لي، وصممت على ارتسام ما رسمت، وأخذت في هذا العمل على النحو الذي ترى … وأسميته «الفردوس أو سياحة في الآخرة»، وكتبت آنئذ طائفة من الكلام تنتهي بوصول الأديب إلى قصر شيخنا الأستاذ الإمام «محمد عبده» في

الجنة، ثم صرفتني عنه تصاريف الأيام، وخَطَرَ الدهرُ مِن خطراته،[٨] وتصرمت السنون، وتجرمت الدهور،[٩] حتى إذا كانت سنة ١٩٢٧ زارني أحد أصدقائي من كتَّاب إحدى المجلات الأسبوعية، وسألني شيئًا ينشره لي، فعرضت عليه أشياء من بينها هذه القطعة من «الفردوس»، فأخذ في إذاعتها، فحفزني ذلك إلى إتمامها، فخطوت فيها خطوات رغيبات[١٠] …

وأخيرًا، وفي هذه الأيام، اقترح علي أخ لي كريم أن أبادر بطبع هذا «الفردوس» منجمًا على أسفار، على الرغم من غلاء الأسعار، فامتثلت وأنا أقدم رجلًا وأؤخر أخرى، لا لشيء سوى أنني أخشى ألا يروق مثل هذا الأسلوب طائفة من مثقفي هذا الجيل، لما يغلب على بعض مواضعه من الغريب والصناعة البيانية، من تشبيه واستعارة وسجع وازدواج وتضمين واقتباس ووصف مسهب، وما إلى ذلك مما قد ينبو به ذوقُ فِئامٍ[١١] من أدباء هذه الأيام … بيد أني أظن أن هناك على هذا جمهرة متوافرة من عشاق البيان، ولغة الضاد والفرقان، قد يقع منهم مثل هذا العمل موقعًا تراح له نفوسهم،[١٢] وتصبو إليه أفئدتهم، لا من جهة عرضه هذا العرض المستطرف — وأستغفر الله — فحسب، ولكن لهذا، ولما تضمنه من فكر وآراء هي نتاج التجاريب، وثمار الاطلاع والبحث والتنقيب، يظاهر ذلك حق صراح، وصدق صادق محض براح[١٣] …

على أن ما قد يلاحظ من ضروب الصناعة إنما يكثر في صدر «الفردوس» لا في سائره، وفي أوائل عرضه لا في أوساطه وأواخره، إذ وُشِّيَ هذا القسم أيام الشباب، وجنون الغرام بالأدب المزور اللباب،[١٤] أما ما يفرط من القلم أحيانًا مما هو بالهزل والمجون أشبه، فإنما الهدف فيه، بعد الإحماض والتفكيه،[١٥] هو الاستعانة على ما وراء ذلك، من دقيق الأغراض وخفي المسالك، ورحم الله مَن قال: إني لأستجم نفسي بالشيء من اللهو والباطل؛ ليكون ذلك أعون لها على الحق … أو كما قال.

«وأما بعد» فإن هذا «الفردوس» إنما هو — كما ترى — وصلة إلى عرض أنماط مختلفة من الكلام، وألوان شتى من القول، في كل ما عسى أن يفكر فيه المفكرون، من ضروب العلم والعرفان، وأفانين الثقافة والبيان، وسيطول هذا «الفردوس» ويستوسع، حتى لقد يستوعب عدة أسفار، وحتى ليصح أن يعد هذا السفر غيضًا من فيض، بالإضافة إلى سائر الكتاب.

والله سبحانه هو الموفق إلى إتمام هذا العمل، وأن يجعل القبول حليفه، ورضا الناطقين بالضاد عنه أليفه، إنه سميع الدعاء، وهو حسبي ونعم الوكيل.

عبد الرحمن البرقوقي

ربيع الآخر سنة ١٣٥٩هـ/مايو سنة ١٩٤٠م

حدَّث أديبٌ ثبَتٌ[١٦] ثقة قال:

إني لفي بيتي ذات ليلة من الليالي، وقد تزويت في زاوية من السرير،[١٧] وبالقرب مني مصباحي الإضحيان المنير،[١٨] ثم أخذت أُنزه النفس، وأجلو صدأ الحس، في روضة من رياض الكتب والأسفار، ونزهة من نزه الأدب والآثار، أجتلي أنوارها،[١٩] وأجتني من كثب أثمارها،[٢٠] وأتفيأ ظلها الوارف الظليل،[٢١] وأنسم رَوحها الندي العليل،[٢٢] ويرتع قلبي من جنباتها في مرتع خصيب، ويكتسي لبي من أوراقها بثوب من الحكمة قشيب،[٢٣] وأنفي الهم برحيق كوثرها عن ساحة صدري،[٢٤] وأكرع من جداولها العذاب النطاف وهي بين سحري ونحري،[٢٥] وأستشفي بترياقها من علل هذا الناس وأدوائه،[٢٦] ومن بلايا هذا العالم المنكوس وأرزائه.[٢٧]

عَالَمٌ أَشْبَهُوا القُرُودَ وَلَكِنْ   خَالَفُوهَا فِي خِفَّةِ الأَرْوَاحِ

* * *

يَحْسُنُ مَرْأًى لِبَنِي آدَمٍ   وَكُلُّهُمْ فِي الذَّوْقِ لَا يَعْذُبُ
مَا فِيهِمُ بَرٌّ وَلَا نَاسِكٌ   إِلَّا إِلَى نَفْعٍ لَهُ يَجْذِبُ
أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ   لَا تَظْلِمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

* * *

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَى   وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ

وما زلت في هذه الروضة الذهنية، وهاتيك النزهة الروحية العلوية، إلى أن شمر الدجى للرحيل الذيل، وكاد النهار يصيح بجانب الليل.[٢٨]

وَقَدْ فَكَّتِ الظَّلْمَاءُ بَعْضَ قُيُودِهَا   وَقَدْ قَامَ جَيْشُ اللَّيْلِ لِلفَجْرِ وَاصْطَفَا

وكان البيت لا يحتوي أحدًا غيري، فكان الصدرَ وكنتُ في طيه السرَّ المكتَّم، وكان الحامل العشراء وكنت الجنين غير التوأم،[٢٩] وكان الجفن وكنت فيه السلاح،[٣٠] وكان السحاب المركوم، وكان مصباحي البارق اللماح.[٣١]

وإني لكذلك؛ إذ طُرق باب غرفتي طرقًا خفيفًا، ثم قُرع بعد هنية طرقًا عنيفًا، فانتبهت مما أنا فيه، ومشى قلبي في صدري حتى شاع الذعر في جميع نواحيه، وقلت في نفسي: ترى مَن بالباب؟! ومَن الطارق المنتاب؟![٣٢] أملك كريم، أم شيطان رجيم؟ وانثالت الهواجس على قلبي انثيالًا،[٣٣] وتقاطرت الوساوس على صدري أرسالًا،[٣٤] وإني لمرتطم في هذه الغمرة،[٣٥] وغاشية هاتيك السكرة،[٣٦] إذ تحرك الباب في سكون، وفُتح في رفق ولين حتى لا تكاد تحس اختلاجه الظنون،[٣٧] ثم اقتحم الغرفة شبح نوراني، مفرغ في قالب إنساني، يسطع النور حواليه، ويرفرف روح الجلال والروعة عليه:

فَتًى رُوحُهُ رُوحٌ بَسِيطٌ كَيَانُهُ   وَمَسْكَنُ ذَاكَ الرُّوحِ نُورٌ مُجَسَّدُ
صَفَى وَنَفَى عَنْهُ القَذَى فَكَأَنَّهُ   إِذَا مَا اسْتَشَفَّتْهُ العُيُونُ مُصَعَّدُ[٣٨]

* * *

تَنْفُذُ العَيْنُ فِيهِ حَتَّى تُرَاهَا   أَخْطَأَتْهُ مِنْ رِقَّةِ المُسْتَشَفِّ
كَهَوَاءٍ بِلَا هَبَاءٍ مَشُوبٍ   بِضِيَاءٍ أَرْقِقْ بِذَاكَ وَأَصْفِ

فلا تسل بعد ذلك عما دهاني، فقد قبعت كالقنفذ في مكاني، وبراني الرعب حتى لتقتحمني العين ولا تكاد تراني، وتقلصت من الفم الشفتان، وكادت تنقطع نياط الجَنان[٣٩] ونال مني الخوف حتى أحالني عرضًا،[٤٠] بعد أن أوسعني حرضًا،[٤١] وفغر الموت فاه،[٤٢] وكادت تطير من جسمي الحياة، ولم يبق فيَّ إلا نفس خافت، وعين إنسانها باهت:[٤٣]

رُوحٌ تَرَدَّدَ فِي مِثْلِ الخِلَالِ إِذَا   أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ لَمْ يَبِنِ

وجملة القول أني استحلت إلى حال:

يَكَادُ وَجِيبُ قُلُوبِ الرِّجَالِ   مِنْ خَوْفِ مَكْرُوهِهَا يَسْمَعُ[٤٤]

* * *

لَقَدْ خِفْتُ حَتَّى خِلْتُ أَنْ لَيْسَ نَاظِرٌ   إِلَى أَحَدٍ غَيْرِي فَكِدْتُ أَطِيرُ
وَلَيْسَ فَمٌ إِلَّا بِسِرِّي مُحَدِّثٌ   وَلَيْسَ يَدٌ إِلَّا إِلَيَّ تُشِيرُ

ثم لمحت الخيال وقد أخذ يتخطر في الغرفة بين جيئة وذهوب وغدو ورواح، وبعد خطوات معدودات وقف الخيال، وانتصب أمامي انتصاب التمثال، واستقبلني كما يستقبل المصلِّي الإمام، أو بيت الله الحرام، ثم حدقني مبرقًا بعينيه، وأتأر إليَّ — ساهم الوجه — ناظريه،[٤٥] ولحظته وكأنه أشفق علي وخاف إن هو مضى في صمته هذا أن أفيظ،[٤٦] وألفِظ النفس الأخير، فأخذ يُليح بيديه إلاحة يريد أن يُفرِخ روعي،[٤٧] ويميت خيفتي، ثم رأيته يترمرم،[٤٨] وأذنت من ناحيته صوتًا خفيتًا رَفيقًا كأنه خفق النسيم في السحر:[٤٩] لا عليك يا أخي لا عليك، وليس إلا الخير صرفًا ساقه الله إليك، وليهنئك ما أنت قادم عليه[٥٠] … فأنا يا أخي نبي الله الخضر … وقد أُمرت أن أستصحبك وأصعد بك اليوم إلى المحل الأرفع والملكوت الأعلى، إلى حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر … فقم يا أخي، قم ولا تنِ وخلِّ الهوينا[٥١] للضعيف، واتبعني حيثما سرت، ولست أطلب إليك إلا أن تلزم الصمت، ولا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا …

وما كاد نبي الله الخضر يتم هذه الكلمات حتى قرت العين، وانكشف الرين، وذهب الأين، وكأنما أُنشطت من عقال،[٥٢] فلا وربك: ما البُرء بعد السُّقم، والخِصب بعد الجدب، والغنى بعد الفقر، وما طاعة المحبوب، وفرج المكروب، والوصال الدائم، والشباب الناعم، بأحلى وأروح من هذه المنْهَاة، التي انتهت بها هذه المأساة:[٥٣]

مَا زِلْتُ فِي غَمَرَاتِ المَوْتِ مُطَّرَحًا   يَضِيقُ عَنِّي وَسِيعُ الرَّأْيِ مِنْ حِيَلِي
فَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِي   حَتَّى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيْ أَجَلِي

وبعد ذلك أحسست أنا الآخر كأنني استحلت إلى جسم نوراني شفاف، وأن مادة جثماني آضت إلى معنى روحاني، وما هو إلا كَلَا ولَا، أو كحسو الطائر الماءَ وقد خاف الملا،[٥٤] حتى زُويت لنا الأرض،[٥٥] ورأيتني ونبي الله في صحراء دوية براح قذف خلاء،[٥٦] مطوقة أطرافها بآفاق السماء، واسعة الجوانب، مجهولة المذاهب، تغتال الخطى،[٥٧] ويحار فيها القطا:[٥٨]

تَجْرِي الرِّيَاحُ بِهَا حَسْرَى مُوَلَّهَةً   حَيْرَى تَلُوذُ بِأَطْرَافِ الجَلَامِيدِ

في فسحة الظنون، بيد أنه تكبو دون غاياتها الخواطر وتخسأ الأبصار،[٥٩] في روعة الخلود، وهل للخلود روعة أروع من ذا أو انبهار!

فَضَاءٌ يَرُدُّ العَيْنَ حَسْرَى   يَقُصُّ جَنَاحَ الفِكْرِ وَهْوُ مُحَلِّقُ

ومفازة هائلة لا تسمع فيها لِواطئٍ همسًا، ولا لِنابح جرسًا،[٦٠] وجوٌّ ساجٍ سجسج،[٦١] وسحر طلقٌ رَوْحٌ أبلجُ.[٦٢]

نَسِيمُهُ كَالرَّاحِ لَوْ يُحْتَوى   وَالرُّوحِ لَوْ يُعْقَدُ مُنْحَلُّهُ

* * *

مِنْ نَسِيمٍ كَأَنَّ مَسْرَاهُ فِي الأَرْ   وَاحِ مَسْرَى الأَرْوَاحِ فِي الأَجْسَادِ

وسماء زرقاء صافية، ونجوم كأنها في لُجة هذا البحر دراريٌّ طافية،[٦٣] أو أزاهرُ طلَّها الندَى فهي تَرف رفيفًا،[٦٤] أو قلوب لذعها الحب فهي لا تني خفوقًا ووجيفًا، أو هي مسامير أبواب الجنة تبص وتلتمع،[٦٥] أو هي عيون الأبدية ترنو إلينا رنوات تهيب بنا أن نستحي ونرتدع،[٦٦] أو هي ثقوب تخترق طِباق السماوات العلى، فتشع منها أنوار الإله جل وعلا، والبدر منتصب بين هاتيك الكواكب، كأنه ملك بين أجناده والمواكب، وكوكب الزهرة تأتلق في روعة لُمعتُه، فلولا التقى لقلت جلت قدرته، والجوزاء كفأرة تسبح، أو غادة ترقص في مسرح، والحوت يسبح في السماء كما يسبح بِحذْقٍ في الماء.

وَبَنَاتُ نَعْشٍ يَشْتَدِدْنَ كَأَنَّهَا   بَقَرَاتُ رَمْلٍ خَلْفَهُنَّ جَآذِرُ

* * *

وَرَنَا إِلَيَّ الفَرْقَدَانِ كَمَا رَنَتْ   زَرْقَاءُ تَنْظُرُ مِنْ نِقَابٍ أَسْوَد

* * *

وَلَاحَتْ لِسَارِيها الثُّرَيَّا كَأَنَّهَا   عَلَى الجَانِبِ الغَرْبِيِّ قُرْطٌ مُسَلْسَلُ

* * *

وَسُهَيْلٌ كَوَجْنَةِ الحِبِّ فِي اللَّوْ   نِ وَقَلْبِ المُحِبِّ فِي الخَفَقَانِ
مُسْتَبِدًّا كَأَنَّهُ الفَارِسُ المَعْـ   ـلَمُ يَبْدُو مُعَارِضَ الفُرْسَانِ
يُسْرِعُ اللَّمْحَ فِي احْمِرَارٍ كَمَا   تُسْرِعُ فِي اللَّمْحِ مُقْلَةُ الغَضْبَانِ[٦٧]

* * *

وَقَدْ لَاحَ فَجْرٌ يَغْمُرُ الجَوَّ نُورُهُ   كَمَا انْفَجَرَتْ بِالمَاءِ عَيْنٌ عَلَى الأَرْضِ

حتى إذا قُوضت خيام الظلام، وفرت أسراب النجوم من حدق الأنام، لمحتُ على قِيد خطوة[٦٨] منا بُراقيْن، أبيضيْن يقَقَيْن،[٦٩] خُيل إليَّ أنهما في انتظارنا، معدَّان لركوبنا، وكذلك كانا؛ فقد تدلَّف[٧٠] إليهما نبي الله الخضر فامتطى أحدهما، ثم أشار إليَّ أن أمتطي الآخر، وما كدت أمتطي بُراقي حتى رأيت منه عِفريَةً نِفريَة مرِحًا أرِنًا صَلَتان، كأنه كما قيل شيطان في أشطان،[٧١] يكاد مما يزدهيه صلفُه يطير،[٧٢] فكأنما لسعته الزنابير،[٧٣] أو كأن التُّرب الذي يلامسه حسكُ السَّعدان[٧٤] أو كأنما خالطت هامته الخندريس فهو معربِدٌ سكران،[٧٥] أما البراق فهو الطِّرف نعم الطِّرف[٧٦] وهو لعبقريته يكاد يستغرق الوصف، وحسبه أنه رَكوبة الأنبياء، لا يعرج بهم غيره إلى السماء، وأنت فإذا نظرت مُنعِمًا[٧٧] إليه، خلت الثريا طالعة بين عينيه، وتوهمت الجوزاء في رُسغيه،[٧٨] وحسبت الضياء قد هُريق[٧٩] عليه.

فَكَأَنَّمَا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ   فَاقْتَصَّ مِنْهُ فَخَاضَ فِي أَحْشَائِهِ

أما عيناه فسوداوان، ولكن سوادهما كله نور، يَريان الشيء البعيد في حلك الديجور.[٨٠]

يُرَى طَامِحَ العَيْنَيْنِ يَرْنُو كَأَنَّهُ   مُؤَانِسُ ذُعْرٍ فَهْوَ بِالأُذْنِ خَائِلُ[٨١]

وأما أذناه فَمُؤَلَّلتان مرهفتان، كأنهما يَراعَتان محرَّفتان،[٨٢] فكأنه مصغٍ لسماع الإذن بالسُّرى، مِن سائس لهما لا يُرى، وأما متنه فلين الأعطاف، وطيء الأكناف، فإذا أنت امتطيته أصبت ليانًا في ليان، فكأن ثمة نسبًا بين عظامه والخيزران، وأما ذنبه فذيل العروس، وجناح الطاووس، وأما حافره فالفيروزج زُرقه، وهو على ذلك كله كالهواء رقه.

طِرْفٌ تَبَيَّنُ لِلبَصِيرِ وَغَيْرَهُ   فِيهِ النَّجَابَةُ جَارِيًا وَمَقُودًا

* * *

هُذِّبَ فِي جِنْسِهِ وَنَالَ المَدَى   بِنَفْسِهِ فَهْوَ وَحْدَهُ جِنْسُ
وَهْوَ إِذَا مَا نَاجَاهُ فَارِسُهُ   يَفْهَمُ عَنْهُ مَا تَفْهَمُ الإِنْسُ

* * *

مَلَكَ العُيُونَ فَإِنْ بَدَا أَعْطَيْتَهُ   نَظَرَ المُحِبِّ إِلَى الحَبِيبِ المُقْبِلِ

وبعد أن امتطينا البراقين، طارا بنا في الجو طيرانًا لست أدري ولا إخالني ماذا عسى أن يُقال في وصفه، وهو معنى من المعاني ليس في وُسع اللغة العبارةُ عن مثله، وإلا فهل يكفي أن تقول: بَاز هَوَى في إثر صيد مِن مَرقب،[٨٣] أو رجمٌ انقض في إثر شيطان من كوكب،[٨٤] أو كأن قد صار له من كل جارحة جناح، أو إذا جرى البرق خلفه كبا البرق وأخطأه النجاح،[٨٥] أو دعوة المظلوم لا تكاد تخرج من فم الداعي حتى تصعد إلى الله ثم تَحيق بالظلوم.[٨٦]

تُفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لِوَفْدِهَا   إِذَا قَرَعَ الأَبْوَابَ مِنْهُنَّ قَارِعُ

أو هو ما يغزوه ابن هانئ بقوله يصف الخيل، وكأنه رأى البراق بظهر الغيب:[٨٧]

وَأَجَلُّ عِلْمِ البَرْقِ فِيهَا أَنَّهَا　　مَرَّتْ بِجَانِحَتَيْهِ وَهْيَ ظَنُونُ

كلَّا، وكيف وما هو إلا رجع الطرف حتى رأيتُني ونبي الله الخضرَ في عالم الأرواح، واقفينَ بباب الفردوس ودار الأفراح ... الله أكبر، ماذا أرى وأنظر، وفي يقظة أنا أم في منام، وهاتيك حقائقُ أم هي رؤى وأحلام؟ الحمد لله على سبوغ نعمته، وضفو نيله وعطيته، الحمد لله لقد أجزل لي في العطاء، ومنحني ما لم يُمنَحه غيرُ الأنبياء، وسواء أكان ذلك في عالم الخيال أم في عالم الحقائق، وفي عالم اليقظة أم في عالم الرؤى الصوادق، فقد أُتيح لي دخول الجنة قبل الممات، ورأيت كل ما فيها حقًّا، وهيهات ذلك لسواي هيهات.

حدَّث الأديب الثقة قال:

والآن، وقد آن لي أن أقص عليك سياحتي في جنات الفردوس، وأن أصفها لك وأصف كل ما رأيت فيها على حقه، فهل تترقب مني أكثر مما كان من ذلك الأعرابي الذي طرأ من البادية على حاضرة قد فهقت حضارة،[٨٨] واستبحرت رفاهية وعمارة، وزخرت نعيمًا وترفًا، واكتظت بدائع وطرفًا، ثم حضر عرسًا فيها لأحد السَّرَوات، فرأى شيئًا لم تقع العين على مثله في الحواضر، بَلْهَ البواديَ البلاقع المقفرات،[٨٩] ثم أُريد على أن يصف ما رأى، فوصف ولكنه أضحك وما عدا،[٩٠] وأين أنا على ذلك من الأعرابي الذي أذاب الفصاحة وأذابته، وأين عرسه من الجنان وما حوته؟ كلَّا، لا أين، ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادًا للكلام عن الجنة لنفد البحر قبل أن ينفد الكلام.

يَفْنَى الكَلَامُ وَلَا يُحِيطُ بِوَصْفِهَا　　أَيُحِيطُ مَا يَفْنَى بِمَا لَا يَنْفَدُ

وبِودي كان، أن يكون ذلك في الإمكان، وأن يؤاتيني كما أشتهي وصف الجنان، فأجلو على أهل الدنيا معنى لو هو برز لهم لتزخرف له ما بين خوافق السماوات والأرض، ولاستحال جمالًا غير الجمال ما بين طولهما والعرض، ولانجابت حلكة هذه الخاسرة، وحل محلها نور إلهي أبدي من نور الآخرة، كما ينجاب الشر بالخير، والضلال

بالهدى، والمرض بالعافية، والنقمة بالنعمة الباقية، نعم، ولو أُتيح لي أن أصف لك الجنة وأنا فيها، راتع بين أهليها، لأتيت لك بكلام علوي فردوسي ملائكي ككلام أهل الجنة إن لم يكن منطبقًا كل الانطباق، فعسى أن يكون مقاربًا، ولكني وا أسفاه! أحدثك بعد خروجي من الجنة، وتمرغي في أعطاف دنياكم هذه وهويي إلى هذا الحضيض الأوهد … على أنه إن لم يكن صَدَّاء فماء،[٩١] وإن لم يكن خمر فخل، وإن لم يصبها وابل فطل،[٩٢] ومن لم يجد ماء تيممًا …

رضوان

رضوان، وما أدراك مَن رضوان، ثم ما أدراك من هو؟

هو أحد الملائكة المقربين، وحسبه أنه سيد خزنة الجنة التي أعدت للمتقين، وهو نور في نور، يكاد سنا برقه يأخذ بالأبصار، ولو هو صاح في جانبي الديجور،[٩٣] لانمحت آية الليل ولم يبق إلا النهار، وماذا عسى أن يكون القول في ملك هو ابتسام فم الآخرة … وإذا كان يوم الفصل فهو فيه قطب الرحى ومركز الدائرة، ولا غرو، فمن ذا الذي يدخل دار السلام إلا بإذنه ورضاه، ومن ذا الذي لا يجعل الازدلاف إليه لذلك وكده وهجيراه،[٩٤] أما أنا فقد أراحني نبي الله الخضر وكفاني مؤنة بذل أي مجهود في سبيل دخول الجنة؛ إذ لم تكد عين رضوان تأخذ الخضر — عليه السلام — حتى فُتح لنا باب الفردوس، وفي هذه اللحظة فرطت مني بادرة كادت تطيح بي في مهواة اليأس من دخولي الجنة[٩٥] إذ أدركتني حرفة الأدب — لها الله — وجال في صدري أن أنظم أبياتًا أمتدح بها رضوان وأزدلف بها إليه، شِنْشِنتي في الدنيا وشنشنة كل أديب،[٩٦] فاتسق لي ذلك واستقام، وفتح الله عليَّ بقصيد بارع موفٍ على الغاية، أطريت فيه رضوان ولا إطراء النصارى المسيح ابن مريم،[٩٧] ثم اقتربت من خازن الجنة لأنشده هذا القصيد، وكأن نبي الله الخضر أحس ذلك مني، فنظر إلي نظرة مروعة استُطير لها قلبي وماث من الخوف كما ينماث الملح في الماء … فأمسكت وسقط في يدي،[٩٨] واعتذرت إلى الخضر عن هذه الهفوة ونشدته الله أن لا ترهقني من أمري عسرًا، فإن ربة الشعر هي التي أوحت إليَّ وأغرتني بهذا الأمر؛ إذ سحرني جمال رضوان وملك عليَّ مشاعري وأنساني ما تشارطنا عليه … ويا لله ما أشأم الأدب على من امتُحن به حتى في الآخرة! … وما لرضوان الذي خلقه الله من طينة الصدق، وفي مهده درج وفي آفاقه يطير، وما للشعر الذي أحسنه كما قيل أكذبه!

هوامش

(١) أينع الثمر فهو يانع: أدرك ونضج.

(٢) الشطحات: من مصطلحات المتصوفة، وهي لديهم عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الحق تعالى عليهم، بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق، وقد استعرناها منهم لمختلف وثبات الذهن، وشتى خطرات القلب وفيوضات الخاطر، وكل ما هو من الاستطراد بسبيل.

(٣) المناقلات: هي أن يتناقل القوم الكلام بينهم ويتنازعوه، تقول: ناقلت فلانًا الحديث إذا حدثته وحدثك، وهي من قبيل المناظرة، ومثلها المثاقفة، وهي من قولهم: ثاقفه مثاقفة فثقفه — كنصره — غالبه فغلبه في الحذق والفطانة وإدراك الشيء، وأصله مِن ثاقفه: لاعبه بالسيف ونحوه، وعذراوات: جمع عذراء، والمراد أنه لم يسبق إليها.

(٤) الأوابد: جمع آبدة، والمراد: الباقية على الأبد لروعتها، ويُقال للشوارد من القوافي: أوابد، من ذا قافية شرود: سائرة في البلاد تشرد كما يشرد البعير، قال الفرزدق:

لَنْ تُدْرِكُوا كَرَمِي بِلُؤْمِ أَبِيكُمُ وَأَوَابِدِي بِتَنَحُّلِ الأَشْعَارِ

(٥) أراها: أظنها

(٦) زعيم: كفيل.

(٧) الظالع هنا: الضعيف، وأصله من الظلع، وهو العرج، والضليع: القوي.

(٨) هو كقولهم: ضرب الدهر من ضرباته: أي مر من مروره وذهب جانب منه.

(٩) تصرمت وتجرمت: انقضت.

(١٠) رغيبات: واسعات.

(١١) فئام: جماعات، ولا واحد له من لفظه.

(١٢) راح له يراح: سر به ووجد له خفة وأريحية.

(١٣) المحض: الخالص من كل شوب، والبراح: البين الذي لا خفاء به ولا جمجمة.

(١٤) المزور: المحسن المزخرف، واللباب: الخالص.

(١٥) الإحماض: التفكيه، يقال: أحمض القوم إحماضًا: إذا أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث، كما يقال: فكه وتفكه، من أحمضت الأبل: إذا ملت من رعي الخلة — وهو الحلو من النبات — اشتهت الحمض فتحولت إليه.

(١٦) ثبَت بفتح الباء: حجة.

(١٧) تزوى: صار في زاوية، وزاوية البيت وأشباهه: ركنه، وفيه معنى الجمع والقبض، وفي الحديث: «إن الله تعالى زوى لي الأرض فأُريت مشارقها ومغاربها.» زوى لي الأرض: جمعها لي.

(١٨) الإضحيان: المضيء.

(١٩) أنوارها: جمع نَور — بفتح النون — وهو الزهر. واجتلاها: نظر إليها مجلوة كالعروس.

(٢٠) جنى الثمرة واجتناها: تناولها من شجرتها. ومن كثب: من قرب وتمكن.

(٢١) تفيأ: تظلل. وظل وارف: واسع ممتد. وظل ظليل: دائم الظل، وقد يكون على المبالغة كقولهم: شعر شاعر. وفي القرآن الكريم: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

(٢٢) الرَّوح — بفتح الراء — نسيم الريح. ونسم الريح وتنسمها: تتبع نسيمها وتشممه، قال الراجز:

دَعِ المَطَايَا تُنَسِّمُ الجَنُوبَا إِنَّ لَهَا لَنَبَأً عَجِيبَا
حَنِينُهَا وَمَا اشْتَكَتْ لُغُوبَا يَشْهَدُ أَنْ قَدْ فَارَقَتْ حَبِيبَا
مَا حَمَلَتْ إِلَّا فَتًى كَئِيبًا يُسِرُّ مِمَّا أَعْلَنَتْ نَصِيبَا
لَوْ تَرَكَ الشَّوْقُ لَنَا قُلُوبَا إِذًا لآثَرْنَا بِهِنَّ النِّيبَا
إِنَّ الغَرِيبَ يُسْعِدُ الغَرِيبَا

(٢٣) القشيب: الجديد.

(٢٤) الرحيق: صفوة الخمر. والكوثر: النهر، وهو أيضًا نهر في الجنة.

(٢٥) كرع هنا: شرب. والجداول، جمع جدول: النهر الصغير. والعذاب، جمع عذب: الماء الطيب. والنطاف، جمع نطفة، وهي هنا الماء الصافي. والسَّحْر بفتح السين وسكون الحاء: الرئة، وفي حديث عائشة: «مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري»؛ أي مات وهو مستند إلى صدرها.

(٢٦) التِّرياق: بكسر التاء، دواء يدفع السموم.

(٢٧) النكس في الأشياء: معنى يرجع إلى قلب الشيء ورده وجعل أعلاه أسفله، ومقدمه مؤخره، وقد يكون فيه معنى الدعاء عليه بالخيبة، وفي الحديث: «تعس عبد

الدينار وانتكس»؛ أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة؛ لأن من انتكس في أمره فقد خاب وخسر. وأرزائه: مصائبه، جمع رزء.

(٢٨) يصيح هنا: يظهر، قال الفرزدق:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

(٢٩) ناقة عشراء: مضى لحملها عشرة أشهر. قال ابن الأثير: قد اتسع في هذا حتى قيل لكل حامل: عشراء، وأكثر ما يطلق على الخيل والإبل. والتوأم: المولود مع غيره في بطن واحد.

(٣٠) الجفن: غمد السيف.

(٣١) سحاب مركوم: تراكم بعضه فوق بعض.

(٣٢) انتاب الرجل القوم انتيابًا: إذا قصدهم ونزل بهم.

(٣٣) يقال: انثال عليه القول؛ أي تتابع وكثر، فلم يدر بأيه يبدأ، وانثال عليه الناس من كل وجه: اجتمعوا وانصبوا.

(٣٤) في الحديث: إن الناس دخلوا عليه بعد موته ﷺ أرسالًا يصلون عليه؛ أي: أفواجًا وفرقًا متقطعة بعضهم يتلو بعضًا، الواحد رَسَل بفتح الراء والسين.

(٣٥) الغمرة: الشدة.

(٣٦) سكرة الموت والهم ونحوهما: غشيته.

(٣٧) اختلاجه: حركته.

(٣٨) لعل ابن الرومي يعني بالمصعَّد: المذاب، ومنه قيل: شراب مصعَّد إذا عولج بالنار حتى يحول عما هو عليه.

(٣٩) الجَنان، بفتح الجيم: القلب.

(٤٠) العرض: ما قابل الجوهر.

(٤١) حرضًا: دنفًا وسقمًا وفساد بدن.

(٤٢) فغر: فتح.

(٤٣) خافت: ضعيف. وإنسان العين: ناظرها. وباهت: حائر ينظر متعجبًا.

(٤٤) وجيب القلب: خفقانه واضطرابه.

(٤٥) حدقه: نظر إليه. وبرق بعينيه تبريقًا: إذا لألأ بهما من شدة النظر. وأتأر إليه النظر: أحده. وساهم الوجه: متغيره.

(٤٦) أفيظ: أموت.

(٤٧) يليح: يشير. وأفرخ روعه: سكن جأشه ويخرج عنه فزعه كما يخرج الفرخ عن البيضة.

(٤٨) ترمرم: حرك فاه للكلام.

(٤٩) أذن أذنًا: استمع، قال قعنب بن أم صاحب:

إِنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا مِنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا
صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

(٥٠) العرب تقول ليهنئك الفارس — بسكون الهمزة — وليهنيك الفارس — بياء ساكنة — ولا يجوز ليهنك، والمراد الدعاء له بأن يكون ما هو قادم عليه خيرًا مستساغًا لا تعب فيه ولا مشقة.

(٥١) المراد بالهوينا هنا: الدعة والركون إلى الأهون من الأمور.

(٥٢) قرت عينه: طابت نفسه وظفر بما يسره، فلا يطمح إلى أكثر منه. والرين كالصدإ يغشي القلب. والأين: النصب والتعب، ويُقال للآخذ بسرعة في أي عمل كان، وللمريض إذا مرض وللمغشي عليه إذا أفاق كأنما أنشط من عقال أي حل. نشط الحبل: ربطه. وأنشطه حله.

(٥٣) المنهاة: النهاية.

(٥٤) حسا الطائر الماء وتحسى واحتسى: تناوله بمنقاره. والملا: جماعة القوم.

(٥٥) زُويت: طُويت.

(٥٦) دوية: بعيدة الأطراف مستوية واسعة، قال العجاج:

دَوِيَّةٌ لِـهَـوْلِـهَـا دَوِيُّ لِلرِّيحِ فِي أَقْرَابِهَا هَوِيُّ

وبراح: واسعة ظاهرة لا نبات فيها ولا عمران. وقذف: بعيدة تقاذف بمن يسلكها.

(٥٧) تغتال الخطى: يريد لا يستبين فيها المشي من بعدها وسعتها.

(٥٨) القطا: طائر معروف، ويُقال في المثل: إنه لأدل من قطاة؛ لأنها ترد الماء ليلًا في الفلاة البعيدة، وإذا كانت القطا على ذلك تحار في هذه الفلاة فحسبك بها فلاة!

(٥٩) تخسأ: تكل تعيا.

(٦٠) الجرس: الصوت.

(٦١) ساج: ساكن. وسجسج: ليس به حر مؤذٍ ولا برد شديد.

(٦٢) طلق: مشرق لا حر فيه ولا برد. ورَوح: طيب. وأبلج: مشرق مضيء.

(٦٣) الدراري: جمع الدرة، اللؤلؤة العظيمة، والكواكب تُسمى الدراري. وهذا البحر: يريد السماء.

(٦٤) رفَّ الزهر والنبات: إذا اهتز وتلألأ وأشرق ماؤه.

(٦٥) بص الشيء: برق وتلألأ ولمع.

(٦٦) الرنو: إدامة النظر مع سكون الطرف. وأهاب به دعاه، وأصله في الإبل، يقال: أهاب الراعي بالإبل: صاح بها لتقف أو لترجع.

(٦٧) سهيل يضرب إلى الحمرة وهو دائم الخفقان، فهو يقول وبدا سهيل وقد اجتمع فيه صفة الحبيب، وهي حمرة الوجه وبريقه وصفة المحب وهي خفقان القلب، وقوله مستبدًّا ... إلخ، مستبدًّا أي منفردًا في أفق من السماء كأنه فارس قد أعلم نفسه في الحرب بعلامة يُعرف بها، وقد خرج عن معارضة فرسان يحاربهم؛ يعني سائر نجوم السماء، كأن سهيلًا يعارضها في أفق طلوعه. وقوله: يسرع ... إلخ، يصف شدة خفقانه وتلألؤه. يقول: إن سهيلًا يرجع اللحظ سريعًا متواترًا مع حمرة فيه كأنه في سرعة رجع البصر محمرًا مقلة إنسان غضبان.

(٦٨) يُقال: هو مني قِيد رمح وقِيد خطوة — بكسر القاف — أي قدر رمح وقدر خطوة.

(٦٩) يقق: شديد البياض.

(٧٠) تدلف: تمشى ودنا.

(٧١) عفرية نفرية: شيطان خبيث، ونفرية على الإتباع. وأرنًا: جاد النشاط، وصلتان: شديد نشيط أو حديد الفؤاد. وأشطان: جمع شطن: الحبل.

(٧٢) الصلف: المراد الإعجاب بالنفس وشدة الاعتداد بها، وازدهاه استخفه كزهاه، قال عمر بن أبي ربيعة:

وَلَمَّا تَنَازَعْنَا الحَدِيثَ وَأَشْرَقَتْ وُجُوهٌ زَهَاهَا الحُسْنُ أَنْ تَتَقَنَّعَا

وقال الأخطل:

يَا قَاتَلَ اللهُ وَصْلَ الغَانِيَاتِ إِذَا أَيْقَنَّ أَنَّكَ مِمَّنْ قَدْرُهَا الكِبْرُ

(٧٣) جمع زُنبور: الطائر المعروف الذي يلسع ويهجم على النحل.

(٧٤) الحسك: الشوك. والسعدان: نبت ذو شوك ينبت في سهول الأرض، وهو من أطيب مراعي الإبل ما دام رطبًا.

(٧٥) الخندريس: الخمر القديمة.

(٧٦) الطرف: الكريم الطرفين، الأب والأم، من الخيل ونحوها.

(٧٧) منعمًا: مبالغًا في النظر.

(٧٨) الرُّسغ: الموضع بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل.

(٧٩) هريق: أُريق وصُب.

(٨٠) الحلك: شدة السواد. والديجور: الظلام.

(٨١) خائل: مختال.

(٨٢) أَلَّل الشيء: حدد طرفه. واليراعة واحدة اليراع: القصبة التي ينفخ فيها الراعي والقلم وهو المراد هنا.

(٨٣) الباز: ضرب من الصقور. والمرقب: الموضع المرتفع يعلوه الرقيب.

(٨٤) الرجم: واحد الرجوم، والمراد هنا ما يظهر في السماء كأنه نجوم تتساقط، وهو معلوم أن الشياطين كانت تُرجم بالرجوم في صدر الإسلام لئلا تسترق السمع، وسيمر بك القول في هذا الموضوع بتفصيل في هذا الكتاب.

(٨٥) كبا لوجهه: انكب على وجهه.

(٨٦) تحيق: تنزل. والظلوم: الظالم.

(٨٧) يغزوه: يقصده ويعينه. وابن هانئ: هو الشاعر الأندلسي الضخم قريع المتنبي.

(٨٨) فهق الإناء: امتلأ حتى صار يتصبب.

(٨٩) بله: اسم فعل بمعنى دع واترك.

(٩٠) أورد صاحب الأغاني وابن قتيبة في عيون الأخبار قصة هذا الأعرابي، ولطرافتها نوردها هنا، قال محمد بن خالد بن يزيد بن معاوية: وكان قد نزل بحلب على الهيثم بن يزيد التنوخي، قال: فبعث، أي الهيثم، إلى ضيف له من عذرة — هو ناهض بن ثومة بن نصيح وكان شاعرًا بدويًّا فصيحًا، وكان بدويًّا جافيًا كأنه من الوحش، طيب

الحديث، يقدم البصرة فتؤخذ عنه اللغة، قال محمد بن خالد: فقال الهيثم لهذا الأعرابي، حدِّث أبا عبد الله، ما رأيت في حاضرة المسلمين من أعاجيب الأعراس: قال: نعم، رأيت أمورًا معجبة: منها أني رأيت قرية عاصم ابن أبي بكر الهلالي، فإذا أنا بدور متباينة، وإذا أخصاص منظم بعضها إلى بعض، وإذا بها ناس كثير مقبلون ومدبرون وعليهم ثياب حكوا بها ألوان الزهر، فقلت لنفسي: هذا أحد العيدين الأضحى أو الفطر، ثم رجع إلي ما عزب عني من عقلي، فقلت: خرجت من أهلي في عقب صفر، وقد مضى العيدان قبل ذلك، فبينما أنا واقف ومتعجب أتاني رجل، فأخذ بيدي فأدخلني دارًا قوراء — واسعة — وأدخلني بيتًا قد نجد، في وجهه فرش قد مهدت، وعليها شاب تنال فروع شعره كتفيه، والناس حوله سماطان — صفان — فقلت في نفسي: هذا الأمير الذي يُحكى لنا جلوسه وجلوس الناس حوله، فقلت وأنا مائل بين يديه: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته، فجذب رجل بيدي، وقال: اجلس، فإن هذا ليس بالأمير. فقلت: ومن هو؟ قال: عروس. قلت: وا ثكل أماه! رب عروس رأيت بالبادية أهون على أصحابه من هن أمه، فلم ألبث إذ دخلت الرجال عليها هنات مدورات من خشب وقضبان، أما ما خف فيحمل حملًا، وأما ما ثقل فيدحرج، فوضعت أمامنا، وتحلق القوم حلقًا حلقًا، ثم أتينا بخرق بيض فألقيت بين أيدينا، فظننتها ثيابًا وهممت عندها أن أسأل القوم خرقًا أقطع منها قميصًا، وذلك أني رأيت نسجًا متلاحكًا — متداخلًا بعضه في بعض تداخلًا شديدًا — لا أتبين له سدى ولا لحمة، فلما بسط القوم أيديهم إذا هو يتمزق سريعًا، وإذا هو فيما زعموا صنف من الخبز لا أعرفه، ثم أتينا بطعام كثير من حلو وحامض وحار وبارد، فأكثرت منه وأنا لا أعرف ما في عقبه من التخم والبشم، ثم أتينا بشراب أحمر في عساس — جمع عس وهو القدح الكبير — فلما نظرت إليه قلت: لا حاجة لي فيه، أخاف أن يقتلني، وكان في جانبي رجل ناصح لي — أحسن الله جزاءه — كان ينصح لي من بين أهل المجلس، فقال: يا أعرابي، إنك قد أكثرت من الطعام، وإن شربت الماء انتفخ بطنك، فلما ذكر البطن تذكرت شيئًا كان أوصاني به أبي والأشياخ من أهلي: قالوا: لا تزال حيًّا ما دام شديدًا — يعني البطن — فإذا اختلف فأوصِ، فلم أزل أتداوى به ولا أمل من شربه، فتداخلني — نالك الخير — صلف لا أعرفه من نفسي، وبكاء لا أعرف سببه ولا عهد لي بمثله، واقتدار على أمر أظن معه أني لو أردت نيل السقف لبلغته، ولو شأوت الأسد لقتلته، وجعلت ألتفت إلى الرجل الناصح لي فتحدثني نفسي بهتم أسنانه وهشم أنفه، وأهم أحيانًا بأن أقول له: يا ابن الزانية، فبينما نحن كذلك، إذ هجم علينا شياطين

أربعة: أحدهم قد علق في عنقه جعبة فارسية مشنجة الطرفين — التشنج: التقبض — دقيقة الوسط قد شُبحت بالخيوط شبحًا منكرًا — شُبحت: شُدت — وقد أُلبست قطعة فرو كأنهم يخافون عليها القر، ثم بدر الثاني فأخرج من كمه هنة سوداء كفيشلة الحمار، فوضع طرفها في فيه فضرط فيها فاستتم بها أمرهم، ثم حسب على جحرة فيها (يريد حرَّك أصابعه على ثقوب هذه الهنة — وهي المزمار — كما يصنع الحاسب حين يعد بأصابعه)، فاستخرج منها صوتًا ملائمًا مشاكلًا بعضه بعضًا كأنه علم الله ينطق، ثم بدر الثالث عليه قميص وسخ، وقد غرق شعره بالدهن معه مرآتان، فجعل يمري إحداهما على الأخرى مريًا، ثم بدر الرابع عليه قميص قصير وسراويل قصير وخفان أجذمان لا ساقين لهما، فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب، ثم التبط بالأرض، فقلت: معتوه ورب الكعبة: «هذا هو الراقص»، ثم ما برح مكانه حتى كان أغبط القوم عندي، ورأيت الناس يحذفونه بالدراهم حذفًا منكرًا، ثم أرسلت إلينا النساء أن أمتعونا من لهوكم، فبعثوا بهم إليهن، وبقيت الأصوات تدور في آذاننا، وكان معنا في البيت شاب لا آبه له، فعلت الأصوات له بالدعاء، فخرج فجاء بخشبة عينها في صدرها، فيها خويطات أربعة، فاستخرج من جنبها عودًا فوضعه على أذنه، ثم زم الخيوط الظاهرة، فلما أحكمها وعرك آذانها حركها بمجسة في يده، فنطقت ورب الكعبة! وإذا هي أحسن قينة رأيتها قط، وغنى عليها فاستخفني في مجلسي حتى قمت فجلست بين يديه، فقلت: بأبي أنت وأمي! ما هذه الدابة؟ فلست أعرفها للأعراب وما خُلقت إلا حديثًا! فقال: يا أعرابي، هذا البربط الذي سمعت به، فقلت: بأبي أنت وأمي! فما هذا الخيط الأسفل؟ قال: زير، قلت: فما الذي يليه؟ قال: مثنى، قلت: فالثالث؟ قال: المثلث، قلت: فالرابع، قال: اليم، قلت: آمنت بالله أولًا وباليم ثانيًا.

(٩١) صداء ركية «بئر» ليس عند العرب ماء أعذب من مائها، وفي المثل: ماء ولا الصداء، يُضرب في الرجلين يكونان ذوي فضل غير أن لأحدهما فضلًا على الآخر.

(٩٢) الطل: المطر الضعيف. والوابل: المطر الشديد.

(٩٣) صاح: ظهر. والديجور: الظلام.

(٩٤) الازدلاف: التقرب. ووكده: قصده. وهجيراه: دأبه.

(٩٥) فرط منه قول: قاله من غير روية، والمراد بالبادرة السقطة والزلة، وهي في الأصل ما يبدر عند حدة الغضب. وطاح به: ذهب به وسقط. والمهواة: الحفرة والبئر، وفي حديث عائشة، ووصفت أباها، وقالت: «وامتاح في المهواة.» أرادت البئر العميقة، أي إنه تحمل ما لم يتحمل غيره.

(٩٦) أزدلف: أتقرب. والشنشنة: العادة.

(٩٧) الإطراء: مجاوزة الحد في المدح.

(٩٨) يقال للرجل النادم على ما فعل الحسر على ما فرط منه: قد سقط في يده وأُسقط.

الأديب يدخل الجنة

ولما فُتح باب الفردوس أخذت عيناي شجرة شجراء،[1] أصلها ثابت وفرعها في السماء،[2] ومن سِنخ[3] هذه الشجرة ينبع عينان ثرتان نضاختان،[4] ينساب منهما نهران يجريان، وحوال هذه الشجرة سرب من الملائكة وقد اصطفوا صفًّا صفًّا، فحياهم نبي الله الخضر، فحيوا بأحسن من تحيته، ثم غمزني نبي الله بعينيه، وأشار إليَّ بأن أنغمس في إحدى هاتين العينين، فسألته جلية الأمر، فقال: وهذه واحدة ... ألم أقل لك لا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا. فقلت له: لا تؤاخذني بما نسيت ولن أعود إلى مثلها، وائتمرت بأمره، ونضوت عني ثيابي،[5] وغطست في ماء العين، فأحسست إثر ذلك كأن شيئًا من أدران الإنسانية كان لا يزال يلتاط بي[6] ثم زال، وأُبدلت من ثم بحالي الأولى أحسن حال، فقد كنت في الدنيا وقد رقت عظامي ونيفت على الستين،[7] فأصبحت في الأخرى ابن ثلاث وثلاثين، وقد كنت فيها جهمًا دميمًا جافي الطلعة مقبوح الخلقة،[8] فقد كان لي وجه كز أشوه كُرشوم شنعنع،[9] يشق منظره على الحدق.

يُفْزَعُ الصِّبْيَةُ الصِّغَارُ بِهِ   إِذَا بَكَى بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَنَمِ

وكان لي مِخطم أنافي كوجار الضب،[10] يا عجبًا كيف احتملته في العاجلة، ما يربى على الستين سنة، وشفتان غليظتان هدلاوان كأنهما مشفرا بعير، أو طُرًّا من فيل،[11] وثالثة الأثافي[12] أني كنت وقد مشت رواحلي وأجهد القتير فيَّ واشتعل الرأس شيبًا،[13] وكفى بالشيب وحده عيبًا.

يَا مَنْ لِشَيْخٍ قَدْ تَخَدَّدَ لَحْمُهُ   أَفْنَى ثَلَاثَ عَمَائِمٍ أَلْوَانَا
سَوْدَاءَ حَالِكَةً وَسَحْقَ مُفَوَّفٍ   وَأَجَدَّ لَوْنًا بَعْدَ ذَاكَ هِجَانَا[١٤]

آهِ، آهَةَ الرجل الحزين من الشيب، ويا حسرتا على الشباب ... الشباب! وهل الدنيا غيره؟! هل الحياة بمطايبها ومناعمها تستطاب، إلا في أيام الشباب؟! وما متاع الدنيا إذا ولى المقبلان: الشباب والصغر؟! وما المجد والمال إذا أقبل المدبران، الشيب والكبر؟

لَا تَكْذِبَنَّ فَمَا الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا   مِنَ الشَّبَابِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ بَدَلُ
لَا تَلْحَ مَنْ يَبْكِي شَبِيبَتَهُ[١٥]   إِلَّا إِذَا لَمْ يَبْكِهَا بِدَمِ
لَسْنَا نَرَاهَا حَقَّ رُؤْيَتِهَا   إِلَّا زَمَانَ الشَّيْبِ وَالهَرَمِ
كَالشَّمْسِ لَا تَبْدُو فَضِيلَتُهَا   حَتَّى تُغَشَّى الأَرْضُ بِالظُّلَمِ
وَلَرُبَّ شَيْءٍ لَا يُبَيِّنُهُ   وُجْدَانُهُ إِلَّا مَعَ العَدَمِ

والبيض الحسان، وهن الروح والريحان،[١٦] وقرة العين،[١٧] والسكن لذي الأين،[١٨] وغايات الأمل، ومنسيات الأجل، هل تظفر منهن بالود والهوى ما لم تخطر بينهن برداء الصبا؟ وبأي شفيع تخطب أيها الشيخ ود الغانيات، وقد سود ما بينك وبينهن بياض تلك الشعرات:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي   خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ المَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ   فَلَيْسَ لَهُ فِي وُدِّهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ المَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ   وَشَرْخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ[١٩]

* * *

أَعِرْ طَرْفَكَ المِرْآةَ وَانْظُرْ فَإِنْ نَبَا[٢٠]   بِعَيْنِكَ عَنْكَ الشَّيْبُ فَالبِيضُ أَعْذَرُ
إِذَا شَنَأَتْ عَيْنُ الفَتَى شَيْبَ نَفْسِهِ   فَعَيْنُ سِوَاهُ بِالشَّنَاءَةِ أَجْدَرُ[٢١]

يقولون: في الشيب والوقار، والعفة والحلم والأدب له تبع،[٢٢] وتلك — عمرك الله — حجة لاجئ إليها العاجزون؛ ففي الموت الوقار الأكبر، وفي الشيب وقار؛ لأنه الموت الأصغر، وهل ما يزعمونه عفة إلا لأن عُريَت أفراس الصبا ورواحله،[٢٣] وطارت دواعي المراح ووسائله.

لَيْتَ الحَوَادِثُ بَاعَتْنِي الَّذِي أَخَذَتْ   مِنِّي بِحِلمِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجْرِيبِي[٢٤]
فَمَا الحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ   قَدْ يُوجَدُ الحِلْمُ فِي الشُّبَّانِ وَالشِّيَبِ

* * *

شُعْلَةٌ فِي المَفَارِقِ اسْتَوْدَعَتْنِي   فِي صَمِيمِ الفُؤَادِ ثَكْلًا صَمِيمَا
دِقَّةٌ فِي الحَيَاةِ تُدْعَى جَلَالًا   مِثْلَ مَا سُمِّيَ اللَّدِيغُ سَلِيمَا[٢٥]
حَلَّمَتْنِي زَعَمْتُمُ وَأَرَانِي   قَبْلَ هَذَا التَّحْلِيمِ كُنْتُ حَلِيمَا

ويقولون: إنما الرأي للشيخ؛ لأن التجاريب قد حنكته، وتصاريف الأدهار قد سبكته،[٢٦] وآض وقد ضرب آباط الأمور ومغابنها،[٢٧] واستشف ضمائرها وبواطنها، فهلا قالوا: إن الأيام نحتت أثلته،[٢٨] وأخمدت وقدته، وأبردت عظامه، وفلت حسامه،[٢٩] وأساء عليه أثر السن، فأخذت الأيام من لبه كما أخذت من سنه … وإنما الشيخ لَدَى النَّصَفة والمعدلة كالزند الذي قد انثلم، ورأي الشبان كالزند الصحيح الذي يَرِي بأيسر اقتداح[٣٠] … ولله در الفاروق — رضوان الله عليه — إذ كان كلما حزبه أمر،[٣١] ونزل به معضل، دعا الفتيان واستشارهم، ويقول: هم أحد قلوبًا … على أنَّ مِن شيم الشيوخ — كما يقول الحكيم — أن يستبدوا دائمًا بآرائهم ويجمدوا أبدًا على أفكارهم:

وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ   حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ[٣٢]

ومن ثم اعتاد سكان جزر فيجي أن يذبحوا آباءهم متى كبروا وحطمتهم السن العالية، وبهذا يعبدون سبيل التطور ويذللون لأنفسهم طريق الرقي والتدرج … قال الحكيم: ونحن فإنا نتقدم إلى الورا، ونسير القهقرى،[٣٣] بإلقائنا تقاليد أمورنا إلى شيوخنا … أما أنا فلما رأيتني وقد رددت إلى أرذل العمر،[٣٤] وأصبحت هامة اليوم أو غد،[٣٥] وأخذت سفينة الشيب تقترب بي من ساحل الموت، وقد فاتني الشباب وما يستتبعه من متع الحياة كل الفوت، وكنت بغريزتي أمقت ما يسمونه الجد والحشمة والوقار، وكنت مذ جن الصبا مفراحًا ممراحًا لعوبًا متوقدًا كأنني خُلقت من مارج من نار،[٣٦] فزعت في الكبر إلى ابنة العنب أحتسيها،[٣٧] ووجدت عزائي كله فيها،[٣٨] ومَن أحق مِن الشيخ بالرحيق،[٣٩] وما الذي يَبُل منه الريق، ويصير ماءه جاريًا جديدًا، بعد أن كان راكدًا آسنًا بليدًا،[٤٠] ويضيء سراجه بعد أن طَفِئ وخبا،[٤١] ويورق غصنه بعد أن ذبل وذوى، ويُحيي منه ميت النفس، بعد أن ظللته ظلال الرمس، غير الشراب؟!

لَاحَ شَيْبِي فَرُحْتُ أَمْرَحُ فِيهِ   مَرَحَ الطِّرْفِ فِي العِذَارِ المُحَلَّى
وَتَوَلَّى الشَّبَابُ فَازْدَدْتُ رَكْضًا   فِي مَيَادِينِ بَاطِلِي إِذْ تَوَلَّى
إِنَّ مَنْ سَاءَهُ الزَّمَانُ بِشَيْءٍ   لَأَحَقُّ امْرِئٍ بِأَنْ يَتَسَلَّى[٤٢]

* * *

اشْرَبْ عَلَى مُوقِ الزَّمَانِ وَلَا تَمُتْ   أَسَفًا عَلَيْهِ دَائمَ الحَسَرَاتِ[٤٣]

* * *

لَا تَنَمْ وَاغْتَنِمْ مَسَرَّةَ يَوْمٍ   إِنَّ تَحْتَ التُّرَابِ نَوْمًا طَوِيلًا

وبعد، فيرحم الله حبيب بن أوس إذ يقول:

لَوْ رَأَى اللهُ أَنَّ فِي الشَّيْبِ خَيْرًا   جَاوَرَتْهُ الأَبْرَارُ فِي الخُلْدِ شِيبَا[٤٤]

وكذلك أبدلني الله إثر دخولي الجنة بشيبي شبابًا، وبقبحي حسنًا لبابًا،[٤٥] فاستحلت — بحمد الله — إلى شاب غض بض،[٤٦] أهيف القد،[٤٧] أدعج العين،[٤٨] مقرون الحاجبين، أسيل الخدين،[٤٩] رقيق الخصر، حلو الشمائل، قيد النواظر،[٥٠] أما الوجه فقد صار بعد هذا القبح كأنه البدر ليلة التمام،[٥١] وأما الأنف الأنافي فقد حال إلى قصبة در وحد حسام، والفم فقد آض إلى حلقة خاتم، أما العين فعين أحور من جآذر جاسم:[٥٢]

فَإِذَا بَدَا اقْتَادَتْ مَحَاسِنُهُ   قَسْرًا إِلَيْهِ أَعِنَّةَ الحَدَقِ
لَا شَيْءَ إِلَّا وَفِيهِ أَحْسَنُهُ   فَالعَيْنُ مِنْهُ إِلَيْهِ تَنْتَقِلُ
فَوَائِدُ العَيْنِ فِيهِ طَارِفَةٌ[٥٣]   كَأَنَّمَا أُخْرَيَاتُه أُوَلُ

هوامش

(١) شجراء: ملتفة كثيرة الأغصان كأنها أجمة.

(٢) السماء هنا: ما علا وارتفع.

(٣) السنخ: الأصل.

(٤) عين ثرة: غزيرة الماء. ونضاخة: فوارة غزيرة.

(٥) نضوت: نزعت.

(٦) يلتاط: يلتصق.

(٧) رقت عظامه: كبر وأسن. ونيف على كذا: زاد.

(٨) جهم: كريه وعبوس.

(٩) كز: قبيح، وكذلك أشوه، وكرشوم وشنعنع، وقبح هذه الألفاظ يناسب قبح مدلولها.

(١٠) مخطم: أنف. وأنافي: عظيم، تقول رجل أنافي: أي عظيم الأنف. ووجار الضب: جحره.

(١١) هدلاوان: مسترخيتان. ومشفر البعير: شفته. وطُرًّا: قُطعا.

(١٢) الأثفية: الحجر توضع عليه القدر، وثالثة الأثافي: القطعة من الجبل تُجعل القدر عليها وعلى حجرين أمامها، ويقال: رماه بثالثة الأثافي: أي بالشر كله.

(١٣) يُقال: مشت رواحله: إذا شاب وضعف. والقتير: الشيب أو أوائله وأصله مسامير الدرع، وسُمي قتيرًا لأنه قتر: أي قدر.

(١٤) من أبيات جميلة أولها:

ذَهَبَ الشَّبَابُ فَلَا شَبَابَ جُمَانَا   وَكَأَنَّ مَا قَدْ كَانَ لَمْ يَكُ كَانَا
وَطَوَيْتُ كَفِّي يَا جُمَان عَلَى العَصَا   وَكَفَى جُمَانَ بِطَيِّهَا حَدَثَانَا

يَا مَنْ لِشَيْخ ... ...

... البيتين وبعدهما:

صَحِبَ الزَّمَانَ عَلَى اخْتِلَافِ فُنُونِهِ   فَأَرَاهُ مِنْهُ كَرَاهَةً وَهَوَانَا
قَصَرَ اللَّيَالِي خَطْوُهُ فَتَدَانَى   وَحَنَوْنَ قَائِمَ صُلْبِهِ فَتَحَانَى
وَالمَوْتُ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ   وَكَأَنَّمَا يَعْنِي بِذَاكَ سِوَانَا

قوله جمانا: يريد جمانة، فرخَّم، ويقال للشيخ قد تخدد: يراد تشنج وتقبض جلده. وقوله: أفنى ثلاث عمائم ألوانا: يعني أن شعره كان أسود ثم حدث فيه شيب مع السواد، فذلك قوله وسحق مفوف، والتفويف: التنقيش، وهو مأخوذ من الفُوف — بضم

الفاء — وهي النكتة البيضاء التي تحدث في أظفار الأحداث، وسُميت بذلك لتشبهها بالفوفة من النواة، وهي الحبة البيضاء في باطن النواة التي تنبت منها النخلة. والسحق: الخلق، يُقال: عنده سحق ثوب. وقوله: أجد لونًا: أي استجد لونًا. والهجان الأبيض: وهي العمامة الثالثة، يعني حين شمله الشيب.

(١٥) لحا الرجل يلحاه: لامه وعذله.

(١٦) البيض: النساء. وروح: استراحة وبرد ورحمة. والريحان في الأصل: كل نبت طيب الريح، وفُسر بالرزق.

(١٧) قرة العين: ما تقر به العين وتُسر.

(١٨) السكن: ما يسكن ويرتاح إليه، والأين: التعب والإعياء.

(١٩) بالنساء: عن النساء. وشرخ الشباب: ريعانه.

(٢٠) نبا: قبح فلم تقبله العين.

(٢١) شنأت: أبغضت. والشناءة: البغضة. والبيض: النساء.

(٢٢) العفة: ترك الشهوات. والحلم: الأناة والعقل.

(٢٣) من قول زهير:

صَحَا القَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَر بَاطِلُهْ وَعُرِّي أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُه

صحا: سلا، من الصحو خلاف السكر. وأقصر عن الشيء: إذا أقلع عنه، قال علماء البيان: أراد زهير بالأفراس والرواحل أن يبين أنه ترك ما كان يقترفه زمن الصبا من الجهل والغي، وأعرض عن معاودته فبطلت آلاته، فشبَّه الصبا بجهة من جهات المسير كالحج والتجارة قضى منها الوطر، فأُهملت آلاتها، فأثبت له الأفراس والرواحل، فالصبا من الصبوة بمعنى الميل إلى الجهل والفتوة، ويُحتمل أنه أراد دواعي النفوس وشهواتها والقوة الحاصلة لها في استيفاء اللذات، أو أراد الأسباب التي قلما تتآخذ في اتباع الغي إلا أوان الصبا وعنفوان الشباب.

(٢٤) الحلم: الأناة والعقل. يقول: إن الحوادث أخذت شبابه وأعطته العقل والحنكة، فبوده لو ردت عليه الشباب واستردت الحلم.

(٢٥) اللديغ: الذي لدغته — عضته — الحية والعقرب، ويسمون اللديغ سليمًا؛ لأنهم تطيروا من اللديغ، فقلبوا المعنى كما قالوا للحبشي: أبو البيضاء، وكما قالوا للفلاة: مفازة، تفاءلوا بالفوز وهي مهلكة، فتفاءلوا بالسلامة.

(٢٦) حنَّك الدهرُ الرجلَ: جعلته التجارب والأمور وتقلبات الدهر حكيمًا. وسبكته: هذبته.

(٢٧) آباط: جمع إبط، والإبط معروف، وهو أيضًا أسفل حبل الرمل ومسقطه. والمغبن: الرفغ؛ أي باطن الفخذ، والمعنى ظاهر.

(٢٨) الأثلة: واحدة الأثل، وهو شجر يشبه الطرفاء، إلا أنه أعظم منها، وخشبه صلب جيد تصنع منه القصاع والجفان، وقد وقعت مجازًا في قولهم: نحت أثلته، إذا تنقصه، قال الأعشى:

ألست منتهيًا عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما أطت الإبل

أطت: حنت.

(٢٩) الحسام: السيف القاطع. وفلته: ثلمت حده.

(٣٠) النصفة: الإنصاف؛ أي إعطاء الحق أو العدل. والمعدلة: ضد الجور. وانثلم: انكسر. والزند: العود الذي يُقتدح به النار. ووريِ الزند يرى: اتقد، وقدح بالزند واقتدح: رام الإيراء به.

(٣١) حزبه أمر: نزل به مهم واشتد عليه أو ضغطه.

(٣٢) الرمس: القبر.

(٣٣) القهقرى: الرجوع إلى خلف.

(٣٤) أرذل العمر: آخره في حال الكبر والعجز، والأرذل من كل شيء الرديء منه.

(٣٥) هو هامة اليوم أو غد: أي يموت اليوم أو غدًا، والهامة: الرأس، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير هامة تزقو عند قبره — تصيح — تقول: اسقوني اسقوني: فإذا أدرك بثأره طارت.

(٣٦) أمقت: أبغض. وجن الصبا: حداثته، وجن كل شيء: أول شداته. ومارج من نار: نار لا دخان لها، خُلق منها الجان.

(٣٧) فزع إلى كذا: لجأ إليه واستعان به. وابنة العنب: الخمر. واحتساؤها: شربها.

(٣٨) عزائي: تأسي وحسن صبري.

(٣٩) الرحيق: الخمر.

(٤٠) آسنًا: كآجن لا يشربه أحد من نتنه، والكلام كله على المجاز، كما لا يخفى.

(٤١) طفئت النار: ذهب لهبها وجمرها. وخبت النار: سكنت وطفئت وخمد لهبها.

(٤٢) الطرف: الكريم الطرفين — الأب والأم — من الخيل. والعذار من اللجام: ما سال على خد الفرس. والمحلى: المزين بالحلي، يريد مصاغ الفضة.

(٤٣) الموق: حمق في غباوة، والموق أيضًا طرف العين مما يلي الأنف.

(٤٤) ورد في الآثار: أن أهل الجنة لا يدخلونها إلا شبانًا أبناء ثلاث وثلاثين.

(٤٥) لباب كل شيء: خالصه وخياره.

(٤٦) غضاضة الشباب: نضارته وطراوته. والبض: الرخص الجسد الناصع البياض.

(٤٧) الهيف: رقة الخصر وضمور البطن.

(٤٨) الدعج: شدة سواد العين مع سعتها، أو شدة سواد سوادها مع شدة بياض بياضها.

(٤٩) خد أسيل: سهل لين دقيق مستوٍ.

(٥٠) قيد النواظر: أي إنه لحلاوته كأنه يقيد العيون فلا تنظر إلى غيره.

(٥١) يقال لليلة التي يتم فيها القمر: ليلة التمام، بفتح التاء.

(٥٢) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. والحور: شدة بياض العين، وسواد سوادها. وجاسم: موضع بالشام، قال عدي بن الرقاع:

لَوْلَا الحَيَاءُ وَأَنَّ رَأْسِيَ قَدْ عَفَا   فِيهِ المَشِيبُ لَزُرْتُ أُمَّ القَاسِمِ
فَكَأَنَّهَا بَيْنَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا   عَيْنَيْهِ أَحْوَرُ مِنْ جَآذِرِ جَاسِمِ

(٥٣) طارفة: يريد متجددة.

الأديب يركب زورقًا في الجنة

حدَّث الأديب الثقة قال:

ثم أجلت بصري حواليَّ فوجدت في أقرب النهرين إلينا زورقًا جميلًا ألَّاقًا يتلألأ تلألؤ النجم الساطع، والكوكب اللامع، وقد قام على جاليه الولدان المخلدون،[١] وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون،[٢] فسمتَ نبي الله الخضر سمته، فتبعته، ثم نزل فنزلت، فتلقانا الولدان باشين بنا هاشين، فرحين مستبشرين، وما كدنا نضع أقدامنا في الزورق حتى أقلع وتقاذف بنا في النهر وانساب انسياب الحباب، ومضى مضي العقاب، وصار يطوي النهر طي السجل للكتاب:[٣]

تَرَى الحَرَكَاتِ مِنْهُ بِلَا سُكُونٍ   فَتَحْسَبُهَا «لِسُرْعَتِهِ» سُكُونَا
كَسَيرِ «الأَرْضِ» لَيْسَ بِمُسْتَقِرٍّ   وَلَيْسَ بِمُمْكِنٍ أَنْ يَسْتَبِينَا

أما الزورق فمن الذهب الوهاج الضحيان،[٤] المسمر بالماس والياقوت والمرجان، أما شراعه فمن الخز الأدكن،[٥] وحبالها من الدمقس المفتل،[٦] وأما دوقله فمن اللجين،[٧] وسكانه فمن الذهب العين،[٨] وما أجمل المُردي في يد النوتي،[٩] وقد فرش الزورق بزرابي مبثوثة من إستبرق، ونمارق مصفوفة من سندس أخضر وديباج أزرق.[١٠]

بُسْطٌ أَجَادَ الرَّسْمَ صَانِعُهَا   وَزَهَا عَلَيْهَا النَّقْشُ وَالشَّكْلُ
فَيَكَادُ يُقْطفُ مِنْ أَزَاهِرِهَا   وَيَكَادُ يَسْقُطُ فَوْقَهَا النَّحْلُ

وأنت فإذا أنعمت فيه النظر، وهو يشق طائرًا عباب النهر، وحواليه زوارق أخرى تسابقه، ولكنها لا تكاد تلحقه، حسبت طواويس أبرزت رقابها، ونشرت أجنحتها وأذنابها، وكأنها إذا جدت في اللحاق، وتنافست في السباق نوافر نعام، أو حوافل أنعام، وويلي من الولدان وهم يجدفون بمجاديف من الجمان، رءوسها من العقيان،[١١] كأنها طير تنفض خوافيها،[١٢] أو حبائب تعانق حبائب بأيديها، في ماء جاش آذيه[١٣] وهو أصفى من البلور، وأبيض من الفضة، وأحلى من الشهد:

هُوَ الجَوُّ مِنْ رِقَّةٍ غَيْرَ أَنَّ   مَكَانَ الطُّيُورِ يَطِيرُ السَّمَكْ

طينه المسك الأذفر،[١٤] ورضراضه الدر الأبيض والياقوت الأحمر،[١٥] وحفافاه قباب اللؤلؤ المجوف المقمر،[١٦] تطل عليه القصور المشيدة المبنية من صنوف الجوهر، تحفها الرياض الضواحك التي تستوقف فيها حدقُ الأزاهر، حدقَ النواظر:

الأَنْفُ وَالطَّرْفُ فِيهَا يَسْرَحَانِ مَعًا   فِي مَبْسَمٍ أَرِجٍ أَوْ مَنْظَرٍ قَشِبِ

* * *

وَالمَاءُ يَفْصِلُ بَيْنَ زَهْرِ الرَّوْ   ضِ فِي الشَّطَّيْنِ فَصْلَا
كَبِسَاطِ وَشْيٍ جَرَّدَتْ   أَيْدِي القِيَانِ عَلَيْهِ نَصْلَا

وأفانين الطير بالنهر محدقة، وغرائبها بالغصون معلقة، متغايرة الألوان والصفات، متنوعة الأصوات واللغات:

وُرْقٌ تُغَنَّى عَلَى خُضْرٍ مُهَدَّلَةٍ   تَسْمُو بِهَا وَتَمَسُّ الأَرْضَ أَحْيَانَا
تَخَالُ طَائِرَهَا نَشْوَانَ مِنْ طَرَبٍ   وَالغُصْنَ مِنْ هَزِّهِ عِطْفَيْهِ نَشْوَانَا

وتنظر فترى أسراب الإوز والبط، منثورة في الماء والشط:

وَكَأَنَّ الطُّيُورَ إِذْ وَرَدَتْهُ   مِنْ صَفَاءٍ بِهِ تَزُقُّ فِرَاخَا[١٧]

وأقاطيع الظباء والبقر، تطفو وترتع على حفافي النهر:

مَا إِنْ يَزَالُ عَلَيْهِ ظَبْيٌ كَارِعٌ   كَتَطَلُّعِ الحَسْنَاءِ فِي المِرْآةِ

والسمك يعوم بعضه في الماء، وبعضه ينزو[١٨] في الفضاء:

يَعُمْنَ فِيهِ بِأَوْسَاطٍ مُجَنَّحَةٍ   كَالطَّيْرِ تَنْفُضُ فِي جَوٍّ خَوَافِيهَا

وما زلت في هذه النزهة الفردوسية التي يقصر عنها وصف الواصف حتى رسا بنا الزورق على قصر منيف بهيج، في روض مغنٍّ ضاحك عبق الأريج، يختال حسنًا ونضارة، ويُزهى رواء وغضارة:

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا   مِنَ الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَا

فنظر إليَّ نبي الله الخضر باسمًا، وقال: أتدري لمن هذا القصر؟ هذا قصر أحب الناس إليك، هذا قصر أستاذك في الدنيا «الشيخ محمد عبده»، وإني آنس منك التوق إلى لقائه، فهلم وسأفارقك إلى حين.

حدَّث الأديب الثقة قال:

وما كدت أزايل الزورق وأضع قدمي في الشاطئ حتى تلقاني الولدان المخلدون، يترقرق في وجوههم ماء النعيم النضر، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، يختلن في ثياب من سندس خضر، ثم أطافوا بي كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحميم يقدم من غيبته، ثم مشوا بي على رود ومهل[١٩] في بستان مشرق مونق تزدهر أزهاره، وتشتجر أشجاره، وتستأسد نجومه،[٢٠] ويُجنُّ جميمه،[٢١] وتغرد أطياره، وتجري أنهاره، ثم استشرفت فآنست — على غلوة سهم منا وفي بهرة البستان[٢٢] — خيمة من اللؤلؤ المجوف أطنابها من الزبرجد، وأوتادها من الياقوت الأحمر، حتى إذا وصل الولدان إلى الخيمة أشاروا إليَّ بالدخول، فرميت ببصري فرأيت ثلة من خيرة المصريين[٢٣] جالسين كجُمَّاع الثريا على سرر متقابلين:[٢٤]

بِيضُ الوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ   شُمُّ الأُنُوفِ مِنَ الطِّرَازِ الأَوَّلِ

وممن عرفت منهم: الشيخ محمد عبده، والشيخ حسن الطويل، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وقاسم أمين، وأحمد فتحي زغلول، ومحمود سامي البارودي، وإسماعيل صبري، وإبراهيم المويلحي، وحفني ناصف، وحسن جلال، وحمزة فتح الله، وملك ناصف (باحثة البادية)، وعبده الحامولي، وسلامة حجازي، وإمام العبد، فسلمت فردوا عليَّ السلام، وكأني بهم وقد عرفوني، فأقبلوا عليَّ يصافحونني ويعانقونني أحر عناق، وأشرقت وجوههم على إشراقها أيما إشراق، ونظرت فرأيت الملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون ...

وبعد أن اطمأن بنا المجلس دخل علينا سرب من الحور العين، يحمل بعضهن أطباقًا من الذهب فيها من فاكهة الجنة ألوان، وبعض يحملن الورود والرياحين، وأخريات يشتلن ألوانًا من الكئوس والأباريق والدنان.[٢٥]

وَشَرَابًا أَلَذَّ مِنْ نَظَرِ المَعْـ   ـشُوقِ فِي وَجْهِ العَاشِقِ بِابْتِسَام
لَا غَلِيظًا تَنْبُو الطَّبِيعَةُ عَنْهُ   نَبْوَةَ السَّمْعِ عَنْ شَنِيعِ الكَلَام

* * *

مِنْ سُلَافٍ كَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ   يَتَمَنَّى مُخَيَّرٌ أَنْ يَكُونَا
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمَ مِنْهَا   وَتَبَقَّى لُبَابُهَا المَكْنُونَا
فَإِذَا مَا لَمَسْتَهَا فَهَبَاءٌ   تَمْنَعُ اللَّمْسَ مَا تُبِيحُ العُيُونَا
فِي كئُوسٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ   جَارِيَاتٌ بُرُوجُهَا أَيْدِينَا

* * *

تُعَاطِيكَهَا كَفٌّ كَأَنَّ بَنَانَهَا   إِذَا اعْتَرَضَتْهَا العَيْنُ كَفٌّ مَدَارِ

* * *

حَوْرَاءَ إِنْ نَظَرَتْ إِلَيْـ   ـكَ سَقَتْكَ بِالعَيْنَيْنِ خَمْرَا

* * *

فِي مَجْلِسٍ ضَحِكَ السُّرُرُ بِهِ   عَنْ نَاجِذَيْهِ وَحَلَّتِ الخَمْرُ

فتفكهنا جميعًا بفاكهة الجنة، وتشممنا الورود والأزاهر والرياحين، ثم طِيف علينا بالراح، وأُديرت بيننا الكئوس وكلنا عُرض عليه الشراب، وكلنا شرب ما عدا إمام العبد، فانتهزت فرصة تشاغل الإخوان بالتفكه والشراب، وحرمان إمام من العُقار،[٢٦] فاختلست الحديث إليه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار، واستلبته استلاب الشمس لرضاب طل الأسحار،[٢٧] وألقمته أذني فصب فيها حديثًا لم نشعر معه بوقت؛ إذ كان أوحى[٢٨] من ومضة برق، وقد مر دون أن يلتفت إليه الإخوان؛ إذ كل شيء في دار السلام غيره في دار الأحزان، قلت له بصوت خافت أريد مداعبته: لعل السبب يا إمام، من حرمانك المدام، أنك كنت في الدنيا من السودان، لا من البيضان، وهل يستوي الليل والنهار، أم هل تستوي الظلمات والأنوار؟! فافتر إمام وأومض[٢٩] حتى تبدت نواجذه، ثم ضحك ضحكته العالية، المعروفة عنه في الدار الفانية، وكانت وحدها لتفجير ينابيع الضحك في صدور جلاسه كافية، ثم قال: لقد أدمنت يا أخي شرب الخمر في الحياة الدنيا، وما زلت أعاقرها حتى صرعتني وأثأرت مني، فهل تشرئب أطماعي إلى أن أحظى بها في الآجلة، بعد أن نلت منها هذا النيل في العاجلة؟ أما يكفيني أني دخلت الجنة التي أُعدت للمتقين، وأني أستمتع الآن بمائة حوراء؛ لأن سوادي في الدنيا حال بيني وبين كل بيضاء، وأنا القائل لذلك فيها:

أَنَا لَيْلٌ وَكُلُّ حَسْنَاءَ شَمْسٌ فَاجْتِمَاعِي بِهَا مِنَ الْمُسْتَحِيلِ

والقائل:

وَسَوْدَاءَ كَاللَّيْلِ البَهِيمِ عَشِقْتُهَا لِأَجْمَعَ بَيْنَ الحَظِّ وَاللَّيْلِ فِي عَيْنِي
إِذَا ضَمَّنَا لَيْلٌ تَبَسَّمَ ثَغْرُهَا فَلَوْلَا سَنَاهَا بِتُّ فِي جُنْحِ لَيْلَيْنِ[٣٠]

قلت له: وبماذا دخلت الجنة يا إمام؟ قال: بإضحاكي في الدنيا الأنام. قلت: وهل الضحك يُدخل صاحبه جنة النعيم؟! قال: وهل الضحك إلا آية حسن الظن بالله الغفور الرحيم، ولقد غفر الله لأبي نواس — وهو مَن تعلم — إذ أحسن ظنه بربه، فقال:

تَبَسَّطْنَا عَلَى الآثَامِ لَمَّا رَأَيْنَا العَفْوَ مِنْ ثَمَرِ الذُّنُوبِ

ويقول:

تَكَثَّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الخَطَايَا   فَـإِنَّـكَ بَـالِـغٌ رَبًّـا غَـفُـورَا
سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدْتَ عَلَيْهِ عَفْوًا   وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرَا
تَعَضُّ نَدَامَةً كَفَّيْكَ مِمَّا   تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورَا

ثم قال إمام: ولقد كنت أنا الآخر حسن الظن بالله؛ إذ كنت في الدنيا كما تعلم رجلًا مفلوكًا محدودًا محَارفًا جدب المعيشة مقتَّرًا عليَّ في الرزق،[٣١] أُرمِّق العيشَ على بَرْض، حتى لكأني كنت أستقطره من أَخْرات الإبر،[٣٢] وكأن القضاء أحرق سفائني دون الغنى والثراء، ولقد قلت وأنا في دار الهموم:

خُلِقْتُ بَيْنَ أُنَاسٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ   فَبَاعَنِي الدِّينُ لِلدُّنْيَا بِلَا ثَمَنِ
لَوْلَا بَقِيَّةُ دِينٍ أَمْسَكَتْ قَلَمِي   لَقُلْتُ إِنَّ إِلَهَ الخَلْقِ لَمْ يَرَنِي[٣٣]

وأنت تعلم:

أَنَّ الثَّرَاءَ هُوَ الخُلُودُ وَأَنَّ   المَرْءَ يَكْرُبُ يَوْمَهُ العُدْمُ

ولكني على ذلك كنت عند قول شاعر الدنيا شوقي:

فَإِنَّ السَّعَادَةَ غَيْرُ الظُّهُورِ   وَغَيْرُ الثَّرَاءِ وَغَيْرُ التَّرَفْ
وَلَكِنَّهَا فِي نَوَاحِي الضَّمِيرِ   إِذَا هُوَ بِاللُّؤْمِ لَمْ يُكْتَنفْ

وكنت لا أهلع ولا أستوهل[٣٤] لأي مكروه دعاني الله به ونزل بساحتي، وكنت كلما مسني الضر وهر عليَّ الزمان[٣٥] ازددت تيهًا على الدهر، وسخرًا من الأيام، فكان لسان حالي ما يقول ابن دريد:

لَا تَحْسَبَنْ يَا دَهْرُ أَنِّي ضَارِعٌ   لِنَكْبَةٍ تَعْرُقُنِي عَرْقَ المُدَى[٣٦]
مَارَسَتَ مَنْ لَوْ هَوَتِ الأَفْلَاكُ مِنْ   جَوَانِبِ الجَوِّ عَلَيْهِ مَا شَكَا

هذا إلى أني نظرت فرأيت أنه ما من إنسان، في دار الأحزان، إلا وهو آخذ من لأوائها بنصيب،[٣٧] فكل مَن فيها لذلك بحاجة، أي حاجة، إلى مَن يروح عنه ويهون عليه … وكأن الأقدار الرحيمة التي أبت لحكمة بالغة إلا أن تجعل بجانب الخير شرًّا، والنفع ضرًّا، والحلو مرًّا، أنشأت أمثالي ليقوموا بمداواة النفوس، وتخفيف ما يئودها من هم وبوس،[٣٨] ولا دواء إلا الدعابة والمجون والضحك.

إِنَّمَا لِلنَّاسِ مِنَّا حُسْنُ خُلْقٍ وَمِزَاحْ
وَلَنَا مَا كَانَ فِينَا مِنْ فَسَادٍ وَصَلَاحْ

قال إمام: على أن في الضحك معنى غريبًا من غير هذه البابة[٣٩] وقفت في الدنيا على مستسرة،[٤٠] ذلك أن الضحك سر من الأسرار الكبار، التي تبعث على الإجلال والإكبار، فقد كنت في الدنيا متى أحسست من أناس شموخًا وكبرياء وإزراء بي وإعراضًا عني، فانبعثتُ ضاحكًا كأنني أُنكرهم ولا أكترث لهم ولا أعبأ بهم، كأن لم يكونوا شيئًا، لا يلبثون أن تستقيم أخادعهم،[٤١] ويطأطئوا من كبريائهم … وكنت كلما استغربت في الضحك واستغرقت — على شريطة أن أكون صادقًا لا يُرى عليَّ أدنى تعمُّل — تحاقرت إليهم نفوسهم، وامتلأت بي عيونهم، وانبسطوا إليَّ، وأقبلوا بنشاطهم عليَّ، وهلم حتى أطولهم وأركب يافوخهم وأستولي على الأمد … فعليك في دار النفاق بالضحك؛ فإنه أمضى سلاح تنتضيه كلما أنست ممن حولك شيئًا من الزهو والعجرفة … ولذلك سبب: هو أن الضحك عنوان الهناءة والسعادة، فإذا ضحكت بكل قلبك كان هذا الضحك منبهة للناس على جليل خطرك ورفعة شأنك، فتراهم بعد أن كانوا يرحمونك، يحسدونك، وبعد أن كانوا يحقرونك، يكبرونك:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَلَقَى الأَنَامَ مُعَظَّمًا فَلَا تَلْقَهُمْ إِلَّا وَأَنْتَ سَعِيدُ

وسبب آخر: هو أن الضحك دليل الثقة بالنفس والاعتداد بها والإدلال بقيمتها، فإذا ضحكت فإنما ذلك لأنك بنفسك وثقت، ولا شيء يبعث على تعظيم قدرك مثل ثقتك بنفسك، وعلى العكس من ذلك كله: الإطراق والاكتئاب.

قال الأديب: وكذلك كان إمام، فقد كان دائمًا طلق المحيا، ضاحك السن، ظريف المحاضرة، بديع النادرة، فكه الأخلاق، خفة روح الزمان، تَرَاح له القلوب، ويمازج الأرواح، وتشربه الضمائر. وإذا صح أن للضحك أمة، فقد كان إمام نبي أمة الضحك، وكانت معجزته أنه ما من إنسان، كان ما كان، من الخشونة والوقار، والعبوس والاكفهرار، والإطراق والانقباض، والحزن والارتماض، ثم رأى إمامًا، قبل أن يتدفق كلامًا، إلا سَرى عنه الهم، وتبسم قلبه قبل الفم، ناهيك بعد ذلك بمجونه وطرفه، ونوادره ومُلحه، التي كانت تفعل بسامعيها فعل الراح بشاربيها، وإنها لنعمة من نعم الله الكبرى أن وُجد في عصرنا مثل إمام …

أَبُو عَلِيٍّ أَخْلَاقُهُ زَهْرٌ غِبَّ سَمَاءٍ وَرُوحُهُ قُدْسُ
يَشْتَاقُهُ مِنْ جَمَالِهِ غَدُهُ وَيُكْثِرُ الوَجْدَ نَحْوَهُ الأَمْسُ
أَيَّامُنَا فِي ظِلَالِهِ أَبَدًا فَصْلُ رَبِيعٍ وَدَهْرُنَا عُرْسُ
لَا كَأُنَاسٍ قَدْ أَصْبَحُوا صَدَأَ الـ ـعَيْشِ كَأَنَّ الدَّهْرَ بِهِمْ حَبْسُ

ثم قال إمام: أما السواد الذي حسبته عابًا، وساء مآبًا، فأين أنت من قول الله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾، ومما ورد في الأثر: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»، وبديع ما قال ابن عمي سحيم:

إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَمًا أَوْ أَسْوَدَ اللَّوْنِ إِنِّي أَبْيَضُ الخُلُقِ

وأبو الطيب إذ يقول:

إِنَّمَا الجِلْدُ مَلْبَسٌ وَابْيِضَاضُ الخُلْـ ـقِ خَيْرٌ مِنِ ابْيِضَاضِ القَبَاءِ

وأظنك لا تجهل قصيدة رياح بن سنيح الزنجي، مولى بني ناجية التي ذكر فيها أكثر من ولدته الزنج من أشراف العرب، يجيب بها جريرًا حين قال جرير:

لَا تَطْلُبَنَّ خُئُولَةً فِي تَغْلِبٍ فَالزِّنْجُ أَكْرَمُ مِنْهُمُ أَخْوَالَا

فتحرك رياح وقال هذه القصيدة، وفيها يقول:

وَالزِّنْجُ لَوْ لَاقَيْتَهُمْ فِي صَفِّهِمْ   لَاقَيْتَ ثَمَّ جَحَاجِحًا أَبْطَالَا[42]

ولقد أشاد الشعراء في الدنيا بالسواد، وشببوا القصائد بالسوداوات، حتى فضلوهن على البيضاوات، وحسبك ما يقول ابن قلاقس السكندري:

رُبَّ سَوْدَاءَ وَهْيَ بَيْضَاءَ مَعْنًى   نَافَسَ المِسْكَ عِنْدَهَا الكَافُورُ
مِثْلَ حَبِّ العُيُونِ يَحْسَبُهُ النَّا   سُ سَوَادًا وَإِنَّمَا هُوَ نُورُ

وصُرَّدُر إذ يقول:

عُلِّقْتُهَا سَوْدَاءَ مَصْقُولَةً   سَوَادُ قَلْبِي صِفَةٌ فِيهَا
مَا انْكَسَفَ البَدْرُ عَلَى تِمِّهِ   وَنُورُهُ إِلَّا لِيَحْكِيهَا
لِأَجْلِهَا الأَزْمَانُ أَوْقَاتُهَا   مُؤَرَّخَاتٌ بِلَيَالِيهَا

ولقد أتى ابن الرومي في هذا الباب بالعجب العجاب، فكان كما قيل: جرى الوادي فطمَّ على القَرى[43] ... قال من أبيات يصف جارية سوداء لعبد الملك بن صالح:

سَوْدَاءُ لَمْ تَنْتَسِبْ إِلَى بَرَصِ الشُّقْـ   ـرِ وَلَا كُلْفَةٍ وَلَا بَهَقِ[44]
لَيْسَتْ مِنَ العُبْسِ الأَكُفِّ وَلَا الفُلْـ   ـحِ الشِّفَاهِ الخَبَائِثِ العَرَقِ[45]
فِي لِينِ سَمُّورَةٍ تَخَيَّرَهَا الفَرَّا   ءُ أَوْ لِينِ جِيدِ الدُّلَقِ[46]
تُذْكِرُكَ المِسْكَ وَالغَوَالِي وَالسُّـ   ـكَّ ذَوَاتَ النَّسِيمِ وَالعَبَقِ[47]
أَكْسَبَهَا الحُبُّ أَنَّهَا صُبِغَتْ   صِبْغَةَ حَبِّ القُلُوبِ وَالحَدَقِ
فَانْصَرَفَتْ نَحْوَهَا الضَّمَائِرُ وَالأَبْصَـ   ـارُ يُعْنِقْنَ أَيَّمَا عَنَقِ[48]
يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنْ يَقِقٍ   مِنْ ثَغْرِهَا كَاللَّآلِئِ النَّسَقِ[49]
كَأَنَّهَا وَالمِزَاحُ يُضْحِكُهَا   لَيْلٌ تَفَرَّى دُجَاهُ عَنْ فَلَقِ[50]
وَبَعْضُ مَا فُضِّلَ السَّوَادُ بِهِ   وَالحَقُّ ذُو سُلَّمٍ وَذُو نَفَقِ
أَلَّا يَعِيبَ السَّوَادَ حُلْكَتُهُ   وَقَدْ يُعَابُ البَيَاضُ بِالبَهَقِ[51]

قلت له: إني يا إمام أعابثك كما كنت أعابثك في العاجلة؛ إذ كنت أحاول بذلك استثارة دفائنك، واستخراج كنوزك ونوادرك، وإذ كنت أحبك كل الحب هناك، فهل كنت تحبني كما كنت أحبك يا إمام؟ قال إمام: وهل تظن كما يظن العامة، وكثير من الخاصة، أن من أحب إنسانًا أحبه المحبوب، وتشابكت القلوب والقلوب؟! وأين أنت إذن من قول ذلك الشاعر الجاهلي، وقد أصاب مقطع الحق:

جُنِنَّا عَلَى لَيْلَى وَجُنَّتْ بِغَيْرِنَا وَأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٌ لَا نُرِيدُهَا
وَكَيفَ يَوَدُّ القَلْبُ مَنْ لَا يَوَدُّهُ بَلَى قَدْ تُرِيدُ النَّفْسُ مَنْ لَا يُرِيدُهَا

فضحكت وضحك إمام ... ثم قلت له: وأين نزلك يا إمام؟ قال: في مكان قصي حيث ينزل أشعب وجحا والجماز والغاضري وأبو دلامة وأبو الشمقمق والشيخ علي الليثي، وكثير من أعيان المُجَّان في الإسلام، وكلما تاقت نفسي إلى رؤية معاصريَّ في الدنيا من أهل مصر جئت إلى حيث هؤلاء الأئمة الأعلام، ولعلك زائري بعد هذه الزورة، حيث تلاقي كل مسرة.

حدَّث الأديب الثقة قال:

وإني لفي حوار مع إمام؛ إذ أقبل عليَّ الإخوان جميعًا يستنبئونني عن حال مصر، ويستطلعون طلعها، كلٌّ من الجانب الذي كان يعنيه في العاجلة: أما الشيخ محمد عبده فكان تَسآله عن الدين وما ألم به، والأزهر وما نزل بساحته، وكان سؤال الشيخ حسن الطويل عن العلم والفلسفة، وقاسم أمين وملك ناصف فكان سؤالهما عن المرأة المصرية، وفتحي زغلول عن الحالة الأخلاقية والاجتماعية، ومصطفى كامل ومحمد فريد فكانا سَئولَيْن عن الحالة السياسية، وكان سؤال البارودي وإسماعيل صبري عن الشعر، والمويلحي وحفني ناصف عن الكتابة والأدب، وحمزة فتح الله عن اللغة، وحسن جلال عن القضاء، وعبده الحامولي عن الغناء والموسيقى، والشيخ سلامة عن التمثيل ... فوقعت في حيص بيص،[٥٢] وحاولت التملص والانفلات، والإقالة من هذه العثرات ... قلت: وما تسآلكم عن أشياء إن تبد لكم عسى أن تسوءكم، ولقد أراحكم الله من الخاسرة وأباطيلها، وأم دفر وأفاعيلها،[٥٣] وأصاركم إلى ما أنتم فيه من نضرة النعيم والترفيه! على أن أكثر ما سألتموني عنه لست من ليله ولا سمره،[٥٤] فلقد كنت في العاجلة أمقت السياسة كل المقت وأجتوي الاشتغال بها وبأهلها، وكنت أراها ضربًا من التبطل واللهو[٥٥] وعمل مَن

لا عمل له ... ولقد كان الجدل — وبخاصة في السياسة والدين — من أبغض الأشياء إليَّ وأبعدها في رأيي عن اليقين:

لِذَوِي الجِدَالِ إِذَا غَدَوْا لِجِدَالِهِمْ   حُجَجٌ تَضِلُّ عَنِ الهُدَى وَتَجُورُ
وُهْنٌ كَآنِيَةِ الزُّجَاجِ تَصَادَمَتْ   فَهَوَتْ وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ

وكنت في الحياة الدنيا لا أدريًّا،[٥٦] وكنت أرى أن كل شيء ثمة فيه عنصر من الحق وعنصر من الباطل، وجانب من الخير وجانب من الشر، ومسحة من جمال الصدق وشية من قبح الكذب،[٥٧] ورأيت العالم شرقًا بالشرور جياشًا بالآثام[٥٨] مذ هبط أبونا آدم من الجنة، وقتل قابيلُ هابيلَ، إلى هذا الحين، ولم تصلح على مر الزمان حاله، وربما زاد فسادًا وجُن ضلاله، ولم يُفلح فيه إرشاد الأنبياء ولا حكمة الحكماء ولا وعظ الواعظين ولا نصح الناصحين:

كَمْ وَعَظَ الوَاعِظُونَ مِنَّا   وَقَامَ فِي الأَرْضِ أَنْبِيَاءُ
فَانْصَرَفُوا وَالبَلَاءُ بَاقٍ   وَلَمْ يَزُلْ دَاؤُنَا العَيَاءُ[٥٩]
حُكْمٌ جَرَى لِلْمَلِيكِ فِينَا   وَنَحْنُ فِي الأَصْلِ أَغْبِيَاءُ

* * *

إِذَا كَانَ عِلْمُ النَّاسِ لَيْسَ بِنَافِعٍ   وَلَا دَافِعٍ فَالخُسْرُ لِلعُلَمَاءِ
قَضَى اللهُ فِينَا بِالَّذِي هُوَ كَائِنٌ   فَتَمَّ وَضَاعَتْ حِكْمَةُ الحُكَمَاءِ

ومن جراء ذلك كله كانت خطتي في العاجلة إنما هو غدو لمعاد، أو إصلاح لمعاش، أو فكر أقف به على ما يصلحني مما يفسدني، أو لذة أستعين بها على الحالات الثلاث، وكنت أشبه بما وصف به ابن المعتز نفسه، إذ يقول:

قَلِيلُ هُمُومِ القَلْبِ إِلَّا لِلَذَّةٍ   يُنَعِّمُ نَفْسًا آذَنَتْ بِالتَّنَقُّلِ
فَإِنْ تَطَّلِبْهُ تَقْتَنِصْهُ بِحَانَةٍ   وَإِلَّا بِبُسْتَانٍ وَكَرْمٍ مُظَلَّلِ
وَلَسْتَ تَرَاهُ سَائِلًا عَنْ خَلِيفَةٍ   وَلَا قَائِلًا: مَنْ يَعْزِلُونَ وَمَنْ يَلِي
وَلَا صَائِحًا كَالعَيرِ[٦٠] فِي يَوْمِ لَذَّةٍ   يُنَاظِرُ فِي تَفْضِيلِ عُثْمَانَ أَوْ عَلِي

وَلَكِنَّهُ فِيمَا عَنَاهُ وَسَرَّهُ   وَعَنْ غَيْرِ مَا يَعْنِيهِ فَهْوُ بِمَعْزَلِ

ثم قلت: ولكني سائلكم بادئ ذي بدء[٦١] عن هذا الوئام، الذي أرى بين مصطفى كامل والأستاذ الإمام، بعد أن يبس الثرى بينهما في دار المحنة،[٦٢] قال الأستاذ الإمام: ألا تعلم أنه متى يدخل أهل الجنةِ الجنةَ يمسح الله ما بهم بعضهم من بعض، فلا يبقى في صدر أحد حسيكة على أحد ولا ضغن ولا إحن،[٦٣] ويعود ما بينهم مشرقًا مثريًّا مونقًا، وهل نسيت قول الله جل شأنه يصف أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۞ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾؟ قلت — والشيء يذكر بالشيء — ولماذا مُني العالم في العاجلة بالخلاف والشقاق، وعلام كل هاتيكم الأحقاد والحزازات، والشرور والإساءات، والمصائب والآفات. قال الأستاذ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ قال عبده الحامولي: ولم لا يكون الاختلاف في الحياة الدنيا بين الأفراد والجماعات إنما يقصد به إلى معنى نبيل حلو جميل، ما منه بدٌّ! ألسنا قد نشئنا كأنغام الموسيقى، هي وإن اختلفت غير أن مجموعها يؤلف من هذا الاختلاف نغمًا موسيقيًّا منسجمًا بديعًا يطرب السمع ويملك على المرء مشاعره؟ قال الشيخ حسن الطويل: هذا الخلاف يرجع إلى الحكمة البالغة في إيجاد الخير والشر. قال أحمد فتحي زغلول: ويرجع إلى طبيعة البشر. قال محمود سامي البارودي: تلك الطبيعة التي خلقها الله من صلصال من حمأ مسنون،[٦٤] ولله عليُّ بنُ العباس إذ يقول:

اعْلَمْ بِأَنَّ النَّاسَ مِنْ طِينَةٍ   يَصْدُقُ فِي الثَّلْبِ لَهَا الثَّالِبُ[٦٥]
لَوْلَا عِلَاجُ النَّاسِ أَخْلَاقَهُمْ   إِذَنْ لَفَاحَ الحَمَأُ اللَّازِبُ[٦٦]

وقال إبراهيم المويلحي: أما مرجع كل المصائب والآلام التي يعانيها العالم في الدنيا فهو تلك الفعلة البارحة[٦٧] التي فعل أبونا آدم في الجنة بعد أن خدعه إبليس خدعة الصبي عن اللبن، وهنا قال إمام العبد وهو يضحك كما كان في الدنيا: كله من أكلة التين![٦٨]

فَيَا لَكِ أَكْلَةً مَا زَالَ مِنْهَا   عَلَيْنَا نِقْمَةٌ وَعَلَيْهِ عَارُ[٦٩]

واستمر المويلحي في حديثه قال: فكأن ما يكابده الناس في دار الهموم والأحزان تكفير لتلك الفعلة، وكأن الدنيا لذلك بيمارستان مجرمين[٧٠] ... قال الأستاذ الإمام: وماذا كانت تكون الحياة لو أن كل شيء فيها كان طيبًا وكانت خالصة لا يشوبها شوب من الأكدار! إنها تكون في هذه الحالة أشبه بحلبة السباق والمتسابقون واحد ليس معه مَن يسابقه، وإنها لحكمة بالغة تلك الشدائد والأهوال التي يلاقيها الناس في الخاسرة، إذ لولاها لما كان للحياة معنى، وكما أنه لولا ضغط الهواء على جسم الإنسان لانصدع وتمزق، كذلك الحال لو يعرى الناس من الشدائد، ويصبحون موفقين في كل ما يعالجون، لا جرم أنهم يصيرون إلى الخرق والطيش والحماقة، وقد يعروهم الخبال والجنون، وحالهم في ذلك تشبه سفينة تسير في خضم عجاج، مغتلم الأمواج دون أن يكون بها صابورة،[٧١] أو ما يغني غناءها، لا غرو أن يُجن جنونها خفة وطيشًا ... قال حفني ناصف: وبضدها تتميز الأشياء، فلو لم يكن ثمة ألم وترح، لما طَعِم بنو الدنيا اللذاذة والفرح:

وَالحَادِثَاتُ وَإِنْ أَصَابَكَ بُؤْسُهَا   فَهْوَ الَّذِي أَنْبَاكَ كَيْفَ نَعِيمُهَا

على أن للأحزان أثرًا صالحًا مُحسًّا في صقل النفوس وجلاء صدائها، وإشباع العقول ورجحانها، وتهذيب الأخلاق واتزانها، مثلها في ذلك مثل بوتقة الصائغ وكيره، يبقيان على الذهب المحض، وينفيان الخبث والرنق،[٧٢] وألم تر إلى الفحم متى ضُغط صار ماسًا، وإلى الصفر المجهود كيف يئول ذهبًا زلالًا بعد إذ كان نحاسًا:[٧٣]

لَقَدْ هَذَّبَتْكَ الحَادِثَاتُ وَرُبَّمَا   صَفَا الذَّهَبُ الإِبْرِيزُ قَبْلَكَ بِالسَّبْكِ

على أن ثمة من الفضائل ما لا يثير دفائنه، ويظهر مضمره، وينثر كنائنه، سوى النوازل والآلام، كالنار يوريها القدح، والطيب يذيعه السحق، ومن هنا كانت هذه الآية العبقرية الحكيمة الخالدة: إن الله لا يحب الفرحين، ومثلها توأمتها كلمة السيد المسيح: طوبى للمحزونين.

حدَّث الأديب الثقة قال:

وهنا أمكنتني الفرصة، فما كذبت أن اهتبلتها،[٧٤] فقلت: أما والأمر كما تقولون، والشر والخصام لا مندوحة عنهما في الخاسرة، والخير والسلام لا يكونان إلا في الآخرة، فقد تركت الخلاف السياسي بين المصريين[٧٥] وقد بلغ أشده، وجاوز حده، فقد تفرقت كلمة القوم بعد أن نزغ الشيطان بينهم،[٧٦] وتمشت فيهم حُميًّا الضغائن والإحن،[٧٧] وذهب الخُلف بينهم كل مذهب، حتى كادت ريحهم تذهب،[٧٨] فتهانف بهم الغاصب،[٧٩] واتخذهم سُخريًّا، وفغر فاه طماعية فيهم، ونشر أُذنيه بعد أن ضرب على أيديهم،[٨٠] والقوم ماضون على غلوائهم،[٨١] متدفقون في طغيانهم، وأنت تعلم أن الإحن،[٨٢] تجر المحن، ومن ثم رفع البلد، في كبد،[٨٣] ودِيس برلمانه، وسُلخ منه سودانه، وعُطلت المرافق، واعوجت الخلائق، والتأث[٨٤] على القوم الأمر، وانتشر الرأي وابذعر، وبقيت الأمة في داهية إده،[٨٥] ولقيت من هذا الأمر كل شدة، وبالحَرَى التوت الحال وتصعبت، بعد أن لانت وتسهلت، وبعد أن ذللت غصونها، وتدانت قطوفها، ولمَّا[٨٦] وكأنْ قد ... بفضل تلك الثورة المباركة والاتحاد المقدس، الذي تم بين رجالات مصر ...[٨٧] أولئك الزعماء الذين حفت بهم ملائكة الخير، وطُردت من ساحات صدورهم شياطين الشر، واصطُلمت من أحشائهم جراثيم الشقاق،[٨٨] فأصبحت سُوحهم فراديس تغص بالملائكة، لا يصدر عنها إلا كل ما هو خير، وكل ما هو جميل:

صَوْتُ الشُّعُوبِ مِنَ الزَّئِيرِ مُجَمَّعًا فَـإِذَا تَـفَـرَّقَ كَـانَ صَـوْتَ نُـبَـاحِ

ولما انتهيت إلى هذا الموضع، قال مصطفى كامل: هلَّا فصَّلت ما أجملتَ! فما كان مني إلا أن فصلت وأكملت، وشرحت أطوار المسألة المصرية، وموقف المصريين حيالها في ثماني سنوات تبتدئ من سنة ١٩١٩ وتنتهي سنة ١٩٢٧ لميلاد السيد المسيح صلوات الله عليه، فدُهش الجماعة أيما دهش، وأطرقوا أسفًا واكتئابًا يشبه اكتئاب أهل الدنيا وليس به، والوصف يقصر عنه:

لَـحَـاهَـا الـلـهُ أَنْـبَـاءً تَـوَالَـتْ عَـلَى سَمْعِ الوَلِـيِّ بِمَا يَشُـقُّ
تَـكَـادُ لِـرَوْعَـةِ الأَحْـدَاثِ فِـيـهَـا تُخَالُ مِنَ الخُرَافَةِ وَهْيَ صِدْقُ

وألا دريت أن مَن استأثر الله بهم، وانتقلوا إلى جوار ربهم، يسرون ويساءون بكل ما يعمل أهل الدنيا ممن يمت إليهم بسبب واصل؟ فإذا كان لك صديق، أو شقيق، أو

أب شفيق، أو أم رءوم، أو ابن بار، أو مواطن تثنيه عليك عاطفة الجوار، ثم سبقوك إلى الباقية، وأنت لا تزال ترتع في الفانية، فلتعلمن أن سيرتك تؤثر فيهم، وسلوكك يرد عليهم: إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فلا تخزوا أيها الناس موتاكم، بقبح ما يأتيهم من مأتاكم …

قال الأديب: وبعد أن سكت الجماعة شيئًا، سكوت سخط، لا سكوت رضا، قال الشيخ محمد عبده: أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن معنى السياسة، ومن كل حرف يُلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يُجن أو يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس، وسائس ومسوس.

مصطفى كامل: وأعوذ بالله من الرئاسة، وحب الرئاسة، فهي أصل البلاء، في عالم الفناء:

بَلَاءُ النَّاسِ مُذْ كَانُوا　　　إِلَى أَنْ تَنْهَضُ السَّاعَه
طِلَابُ الأَمْرِ وَالنَّهْي　　　وَحُبُّ السَّمْعِ وَالطَّاعَه

محمد فريد: نعم، وكل ما تلقاه الشعوب، من الآلاقي[89] والكروب، فمأتاته[90] ذوو الرئاسة والسلطان ومن لف لفهم،[91] وبخاصة في الشرق وبالأخص في مصر، فهم — كما يُرى — يغمطون الشعوب،[92] ويستهزئون بها، ولا يقدرونها حق قدرها، برغم أنهم ليسوا إلا خدامها، أقامتهم لإنفاذ مشيئتها، والقومة على مصالحها وخفارتها، فإذا هم قصروا وانحرفوا عن الجادة كانوا غير أهل لما أُسند إليهم، وبالتالي استحقوا الطرد والتنكيل بهم والتمرد عليهم. على أن الشعوب قد تملي للظلمة من حكامها، وترخي لهم الطِّوَل،[93] ولكنها إذا قالت رددت قالها الأقدار، وإذا استُغضبت كان غضبها الحديد والنار:

إِنْ مَلَكْتَ النُّفُوسَ فَابْغِ رِضَاهَا　　　فَلَهَا ثَوْرَةٌ وَفِيهَا مَضَاءُ
يَسْكُنُ الوَحْشُ للوُثُوبِ مِنَ الأَسْـ　　　ـرِ فَكَيْفَ الخَلَائِقُ العُقَلَاءُ

* * *

ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا　　　وَعَدَوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أُجَرَاؤُهَا

* * *

تَخِذْتِكُمُ دِرْعًا وَتُرْسًا لِتَدْفَعُوا   نِبَالَ العِدَا عَنِّي فَكُنْتُمْ نِصَالَهَا

* * *

كَمُتَّقٍ لَفْحَ نَارٍ يَسْتَعِدُّ لَهُ   بِالجَهْلِ دِرْعَيْنِ مِنْ قَارٍ وَكَبْرِيت

إبراهيم المويلحي: إن الرياسة في الأعم الأغلب، تحيل طباع الناس، وإنها لمفسدة للأخلاق أي مفسدة، فبينا ترى الرجل قبل الرياسة نبيل النفس، سري الأخلاق، محمود الشمائل، عفيف الإزار، خفيفًا من الأوزار،[٩٤] مؤدَمًا مبشَرًا إدام قومه،[٩٥] قد تتسعر جوانبه حماسة وطنية، وتطير برأسه نُعرةٌ قوميةٌ،[٩٦] إذا به بعد أن تأتيه الرئاسة وقد انقلب سوء منقلب، فنضا عنه ثوب التقى ولبس لقومه جلد النمر، وقلب لهم — كما يقولون — ظهر المجن،[٩٧] وأجدب قلبه،[٩٨] وصلدت أخلاقه،[٩٩] وبلد إحساسه،[١٠٠] وبردت عواطفه، ولبس أذنيه،[١٠١] وأخذ يعثر في سيره عثرات يدمى منها الأظل،[١٠٢] ويدحض دحضات تخرجه إلى سبيل مَن ضل،[١٠٣] فكأن الرئاسة «معمودية» إبليس،[١٠٤] من عُمد بها فصار رئيسًا، انقلب شيطانًا نجيسًا، وآض صِلًّا في مسلاخ إنسان،[١٠٥] وحرباء ذا أشكال وألوان.[١٠٦]

كَأَبِي بَرَاقِشَ كُلَّ لَوْ   نٍ لَوْنُهُ يَتَخَيَّلُ[١٠٧]

كان عبد الملك بن مروان يُسمى حمامة المسجد، للزومه المسجد الحرام، فلما أتاه الخبر بخلافته كان المصحف في حجره فوضعه، وقال: «هذا فراق بيني وبينك.» وقد قال يومًا: «إني كنت أتحرج أن أطأ أنملة، والآن يكتب الحجاج إلي في قتل فئام[١٠٨] من الناس فما أحفل بذلك.» وقال له الزهري يومًا: بلغني أنك شربت الطلاء،[١٠٩] فقال: إي — والله — والدماء. ومما يُؤثر عنه قوله: عجبت للسلطان كيف يحسن، وإذا أساء وجد من يزكيه ويمدحه! ... وإن في ذلك لعبرة لمن اعتبر.

أحمد فتحي زغلول: ومما ابتُليت به مصر على الخصوص في رؤسائها أن أكثرهم ليس بينهم وبين المصريين آصرة وطن، فجلهم دخيل يَنمي إلى أصل غير مصري، فمنهم عبيثة من الأقوام ولويثة، ما يُعرف لهم مضرب عسلة،[١١٠] ومنهم مَن قد ضربت فيهم نساؤهم بعرق ذي أشب،[١١١] فإذا هم تولوا أمر مصر تداركتهم أعراق سوء، ونزت

قلوبهم إلى إيذائها وكانوا حربًا للمصريين[١١٢] وعونًا للغاصب عليهم. ولقد خالطتُ في العاجلة كل جالة من الجالات[١١٣] في مصر على تنوعهم وتعددهم فوجدتهم جميعًا، حتى المسلمين منهم، حتى أحط الطوائف — إلا من طاب غرسه، وكرمت نفسه — يحملون الحقد والاحتقار معًا للمصريين، برغم أنهم يتقلبون في نعمائهم، وهذا من غريب طبائع البشر؛ إذ لست أدري لذلك سببًا سوى كرم المصريين، وأن الكرام مشاغل السفهاء:

وَأَنِّي شَقِيٌّ بِاللِّئَامِ وَلَا تَرَى   شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ الشَّمَائِلِ

حفني ناصف: نعم، ومساكينُ هم الأخيار، وويل لهم من الأشرار، فالأشرار لا يعجبون إلا بالأشرار ولا يحفلون بالأخيار، بلى! وتراهم مع ذلك مولعين بهم وبإيذائهم، والأصل في هذا أن حال الأخيار الكرام أهل الوفاء والمروءة والشهامة ناصعة نيرة واضحة وضوح النهار المستطير في رونق الضحى، أما الأشرار اللئام فشأنهم الغموض واللبسة[١١٤] والإبهام، شأن الليل ذي الظلم والدجى، والمجهول أبدًا مخوف مهوب مرهوب، ومن ثم نرى الناس لا يخافون إلا مَن كان هذا شأنه، فضلًا أنهم يُكبرونه ويبقون على وده، ولا جرم أن الشر لا يدفعه إلا الشر، والحديد بالحديد يفلح،[١١٥] والشهرة بالملاينة والخير شر من الاشتهار بالغلظة والشر؛ لأن مَن عُرف بأخي الشر اجترأ عليه الناس، ومن عُرف بأخي الخير هابه الناس وتجنبوه،[١١٦] ورحمة الله على الفاروق إذ قيل له: فلان لا يعرف الشر … فقال: ذاك أوقع له فيه … أو ما هذا معناه، وبعد: فإن أكثر هذا الناس لئيم قد طُبع على ضرائب من اللؤم، ومن ثم كان جديرًا بالمرء يهمه الاحتفاظ بنفسه وبعرضه[١١٧] ودينه وماله وبلاده أن يمزج كرمه باللؤم، وخيره بالشر، وعقله بالجهل، ويضع كل شيء موضعه، ويقر الأمور في نصابها، وإلا استأسد عليه الناس وتذاءبوا، وطمعوا فيه وتكالبوا:

مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ تَحَامَوْا ظُلْمَهُ   وَعَزَّ عَنْهُمْ جَانِبَاهُ وَاحْتَمَى
وَهُمْ لِمَنْ لَانَ لَهُمْ جَانِبُهْ   أَظْلَمُ مِنْ حَيَّاتِ أَنْبَاثِ السَّفَا[١١٨]

قال الأديب: فقلت: ومن العجب العجاب أن الكلمة الآن هي كلمة الشعوب، فقد أصبحت حكومات العالم كلها أو جلها شورى، وصار لها مجالس نيابية بيدها الحل والعقد والهيمنة على الملوك والحاكمين، وجاء دور مصر بأَخَرَةٍ فأصبح لها «برلمان» لم يظفر به المصريون إلا بعد أن خُضبت أيديهم بالدماء، وبذلوا في سبيله حر المال والذماء،[١١٩] وعلى الرغم من ذلك ومن أن المصريين، وهم في الروابي من الشعوب[١٢٠] وأعرقهم في الحضارة وأسبقهم إلى المجد والسؤدد، وأرسخهم قدمًا في العلم والعرفان، ودينهم دين الحرية الصريحة، والمدنية الصحيحة:

قَوْمِي اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّهْرِ فَتًى   وَمَشَوْا فَوْقَ رُؤْسِ الحِقَبِ
عَمَّمُوا بِالشَّمْسِ هَامَاتِهِمُو   وَبَنَوْا أَبْيَاتَهُمْ بِالشُّهْبِ
قَدْ قَبَسْنَا المُلْكَ عَنْ خَيْرِ أَبٍ   وَقَبَسْنَا الدِّينَ عَنْ خَيْرِ نَبِي

فكانوا لذلك أحق من غيرهم بالبرلمانات، وبما هو أكثر من البرلمانات، ولكن على الرغم من ذلك كله، ومن أن برلمانهم لم يترعرع بعد، ولم يشب عن الطوق، مال عليه هؤلاء الرؤساء، أو هؤلاء الأعداء، وعبثوا به عبث النكباء بالعود،[١٢١] وتمادوا في طغيانهم يعمهون، فانعكست بذلك الآية، وأسلمتنا البداءة للنهاية، وانقلب المهيمِن مهيمَنًا عليه، وكأن البرلمان لعبة يُلعب بها لا حَكم يُحتكم إليه، ولا ذنب للبرلمان في هذا سوى أنه أوشك أن يقوم بمهمته خير قيام، وأن يُحَاسِب الحساب العسير هؤلاء الحكام:

إِذَا مَحَاسِنِيَ اللَّائِي أُدِلُّ بِهَا   كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ؟

إبراهيم المويلحي: إذن لا بد من أن الغاصب يعضد هؤلاء الرؤساء، ويحوطهم ويغريهم بهذه الأمة السيئة الحظ:

وَكَيْفَ يَخْشَى صَوْلَةَ الذِّئْبِ مَنْ   قَدْ جَعَلَ السَّبْعَ لَهُ عُدَّة

محمد فريد: بيد أن هؤلاء الرؤساء لو كانوا من الطراز الأول ذوي الشرف والنبل والإباء، والعزة القعساء،[١٢٢] والعيص الأشب، والفعال الموروث والمكتسب،[١٢٣] لا تلين قناتهم لغامز،[١٢٤] ولا تتهضم نفوسهم لظالم،[١٢٥] ولا تتعاظمهم جبورة محتل،[١٢٦] أو كانوا على الأقل ممن يُكرِمون أنفسهم ويتجافَون بها عن مواطن الهوان، أو كانوا

مخلصين لهذه الأمة آبهين لها، لَمَا بالوا — وربك — بالغاصب، ولَمَضَوا قدمًا فيما فيه صلاح بلادهم مهما لاقوا في هذا السبيل، ولو أن كل رئيس كان هكذا لرجع الغاصب أدراجه، وتأخر أخرًا في سبيل طماعيته، ولكن أكثر الرؤساء في مصر — إلا من هدى ربك — سواسية كأسنان الحمار، أو كحماري العِبادي، وقد قيل له: أي حماريك شر؟ فقال: هذا ثم هذا:[١٢٧]

خِلَقٌ إِذَا حَدَّثْتَ عَنْ أَخْلَاقِهَا فَكَأَنَّمَا كَشَّفْتَ عَنْ سَوْآتِهَا
مُتَرَاهِنِينَ عَلَى الدَّنِيَّةِ أَحْرَزُوا غَايَاتِهَا وَتَنَاهَبُوا حَلَبَاتِهَا
وَرِثَتْ نُفُوسُهُمُ خَبَائِثَ أَصْلِهَا لُؤْمًا وَزَادَتْ دِقَّةً مِنْ ذَاتِهَا
وَمُلَثَّمِينَ عَلَى النِّفَاقِ بِأَوْجِهٍ صُمٍّ يَصِيحُ اللُّؤْمُ فِي جَنَبَاتِهَا

ومن هنا كان طمع الغاصب في هذه الأمة، وتهالكه عليها.

قال الأديب: وهنا قال الشيخ محمد عبده: وثمة شيء آخر يكشف لك سرًّا من أسرار فشل هذه الأمة وذهاب ريحها؛ إذ تنزو إلى الخلاف والنزاع والشقاق، ذلك أن جمهرة الشرقيين وخصيصى المسلمين منهم، حديدو العواطف مشبوبو المشاعر، فإذا ما أحبوا أغرقوا في الحب حتى يبلغوا النهاية، وإذا ما أبغضوا أوفوا في البغض على الغاية، لا يلوذون في تصاريفهم إلى ركن من الحجا ركين، ولا يعتصمون لدى الحفيظة بعاصم من الخلق والدين، ليسوا إذا عد الدهاة في العير ولا في النفير،[١٢٨] فكأن حلومهم نفخت فيها الأعاصير، يعوزهم ضبط النفس إذا صرح الشر، وترك الهوى إذا أمكن الأمر، بينما الأغيار وخصيه الشعوب الآرية، ولا سيما القادة وذوو الرئاسة وأولو الأمر منهم والمتصدون لسياسة الأمم، يحكمون عقولهم على قلوبهم، ويؤثرون مرافقهم على أهوائهم، ذوو رأي وتدبير وبصر بأعقاب الأمور، وأناة لا يطير الجهل في جنباتها، ولا ينزل الطيش بساحة من ساحاتها، وبذا بذوا الشرقيين، وأضحى هؤلاء لهم مسودين، ولو شاء الشرقيون أن يداركوا أمورهم، لداووا بكل الأشافي ألبابهم:

لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ الإِنْسَانِ

* * *

وَإِذَا الرِّيَاسَةُ لَمْ تُعَنْ بِسِيَاسَةٍ عَقْلِيَّةٍ خَطِئَ الصَّوَابَ السَّائِسُ

ثم قال الشيخ محمد عبده: وهذا على الرغم من أن الإسلام الذي يدينون به، ويزعمون أنهم مستمسكون بأدبه، كثيرًا ما نهى عن اتباع الهوى، وحض على الاستمساك بالعقل والنُّهى، فقد اكتظ كتاب الله وأحاديث المصطفى — صلوات الله عليه — وما أُثر عن السلف الصالح، من التنويه بالعقل والإشادة بذكره، والحض على اللجوء إليه، والاعتماد في سائر الأمور عليه، والكياسة، وحسن السياسة، والاعتصام بالتقوى، بما لا يُعد ولا يُحصى، وحسبهم قول الله جل شأنه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾، والهوى كل ما تهواه النفس وتصبو إليه مما لا يتفق والعقل والنُّهى ... وقال — ولله المثل الأعلى — يعيِّر قومًا ويشنِّع عليهم ويسفههم ويُصغي إناءهم:[١٢٩]﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ ويقول سبحانه في مواضع من كتابه الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ وقال: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. إلى كثير من هذه الآيات الكريمة التي يزخر بها كتاب الله ... وكان المصطفى — صلوات الله عليه — إذا بلغه عن إنسان عبادة قال: كيف عقله؟ فإن قالوا عاقل، قال: ما أخلقه أن يبلغ، وإن قالوا: ليس بعاقل قال: ما أخلقه أن لا يبلغ. وقال: مَن لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه ... وقال: اعص هواك والنساء وأطع من شئت. وقال عليه السلام: ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا،[١٣٠] الذين يألفون ويؤلفون، ألا أخبركم بأبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة: الثرثارون المتفيهقون ... وقال في معنى القصد في الأمر، وأن لا يغلو المرء في الحب والبغض: أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما.

ولم لا يقول هذا والكثير الكثير من أمثاله مَن أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه؟ ويقول له وهو أصدق القائلين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ولو أن المسلمين تدارسوا سيرة الرسول ووقفوا على شمائله الكريمة وأخذوا إخذه، وحذوا حذوه، واهتدوا بهدايته، وفطنوا إلى مرامي سياسته، لكان منهم أكبر ساسة، ولسادوا العالم وناسه، كما كان من خريجيه وتلاميذه الصديق والفاروق وذي النورين

وأبي تراب، وابن أبي سفيان[١٣١] وسائر صحابته، وتابعيهم من المستنين بسنته، أولئك الذين أنعم الله عليهم، ونشئوا في حضانة صفيه وخيرته من خلقه، رضوان الله عليهم أجمعين.

قال الأديب الثقة: ولقد أنبهتك غير مرة إلى أن لغة أهل الجنة، غير لغة دار المحنة، ومن ثم كان كل ما أعزوه في هذا الحديث من القول إلى قائليه من أهل دار السلام أشبه بالمنقول من لغة إلى لغة، ولكن لا كالحسناء وخيالها في المرآة، لا، ولا من قبيل المترجَم من لغة إلى لغة تضارعها أو تقاربها رفعة وسناء، أو أن المترجِم يداني القائل الأصلي بلاغة وأداء، ولكن إذا كان لا بد من التشبيه فأشبه شيء بذلك — وللجنة ومن فيها المثل الأعلى — أن تعمد إلى رجل من العامة صلد الذهن، أغلف القلب، ران عليه الغباء[١٣٢] فتسمعه إحدى أوابد شوقي[١٣٣] وتقِفَه على مراميها، ثم تستعيده ما سمع وانظر ما أنت سامع … ولقد أذكرني هذا التشبيه ما كان بين المعتمد بن عباد، أحد ملوك الطوائف بالأندلس، وبين يوسف بن تاشفين البربري ملك مراكش، وذلك أن ابن عباد أرسل إلى ابن تاشفين رسالة تمثل فيها ببيتي ابن زيدون:

بِنْتُمْ وبِنَا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَآقِينَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمُ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا

فلما قُرئ عليه هذان البيتان قال للقارئ: يطلب منا جواري سودًا وبيضًا! قال القارئ: لا يا مولاي، ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارًا؛ لأن ليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلًا؛ لأن ليالي الحزن ليالٍ سودة … فقال: والله جيد، اكتب له في جوابه: إن دموعنا تجري عليه ورءوسنا توجعنا من بَعده … وكذلك شأني في وصف الجنة وكلام أهليها، بعد هبوطي إلى الدنيا وتمرغي فيها، وما حيلتي وقد كانت مرآة ذهني وأنا في الجنة، أسمع كلام أولئك الجلة، كأنها الوذيلة المستوية صفاء وصدقًا وبلاغًا،[١٣٤] فلما غادرتها وظننت أني سأقص لذلك عليك أحسن القصص، وأروي لك ما سمعت كما هو دون أن أخرم منه حرفًا، أو أن أحيف عليه حيفًا،[١٣٥] رأيت هذه المرآة وقد آضت مقعرة حدباء، فأنى لك بعد هذا إلا أن تسمع هذه الأحاديث محرفة شوهاء، ولا غرو فليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، أما المسميات فبينها من التفاوت ما بين الأرض والسماء! بيد أنه — كما قلنا — إن لم يكن صداء[١٣٦] فماء، وإن لم يكن خمر

فخل، وإن لم يصبها وابل فطل، ومن لم يجد ماء تيممًا، فتفطن دائمًا لذلك ولا تخله قط من بالك.

هوامش

(١) جالاه: جانباه.

(٢) عين: جمع عيناء، واسعة العين عظيمة سوادها، ومنه قيل لبقر الوحش: عين، صفة غالبة. ولؤلؤ مكنون: مصون مستور من الشمس وغيرها.

(٣) الحباب: الحية. والعقاب: طائر من الجوارح معروف. والسجل هنا: الكاتب، أو الرجل، بلغة الحبش.

(٤) الضحيان: البراق المضيء.

(٥) الخز: الحرير. والأدكن: المائل لونه إلى السواد.

(٦) الدمقس: الحرير الأبيض والديباج.

(٧) الدوقل: خشبة طويلة تشد في وسط السفينة يمد عليها الشراع، وتسميه البحرية: الصاري، واللجين: الفضة.

(٨) السكان: الدفة.

(٩) المردي: خشبة تدفع بها السفينة. والنوتي: الملاح.

(١٠) قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، الزرابي: النبت إذا اصفر واحمر وفيه خضرة، فلما رأوا الألوان في البسط والفرش شبهوها بزرابي النبت، وكذلك العبقري من الثياب والفرش، والزرابي: جمع زريبة، والمراد هنا البسط ذو الخمل. والإستبرق: الديباج الغليظ. والنمارق جمع نمرقة: الوسادة يُتكأ عليها.

(١١) الجمان هنا: الفضة. والعقيان: الذهب.

(١٢) الخوافي: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت، وخوافيها هنا تُقرأ بسكون الياء للسجع.

(١٣) آذيه: موجه. وجاش: ارتفع.

(١٤) الأذفر: الذكي الريح.

(١٥) الرضراض: الحصى الصغار.

(١٦) حفافاه: جانباه.

(١٧) زق الطائر الفرخ يزقه: أطعمه بفيه.

(١٨) ينزو: يثب.

(١٩) مهل: عطف تفسير لرود، تقول منه: أرود في السير: أي أرفق.

(٢٠) النجم من النبات: كل ما نبت على وجه الأرض ونجم على غير ساق. واستأسد النبت: بلغ والتف وقوى.

(٢١) الجميم: النبت الكثير. وجنونه: بلوغه مداه.

(٢٢) استشرف: رفع رأسه وعينيه. وآنست: رأيت. والغلوة: قدر رمية سهم على أبعد مدى. والبهرة: الوسط.

(٢٣) الثلة بالضم: الجماعة من الناس، وفي التنزيل: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.

(٢٤) جماع الثريا: مجتمعها.

(٢٥) يشتلن: يرفعن. واشتال: بمعنى رفع، قال الراجز:

حَتَّى اشْتَالَ سُهَيْلٌ فِي السَّحَر

(٢٦) العقار: الخمر.

(٢٧) الرضاب: الريق. ورضاب الطل والندى: ما تقطع منه على الشجر. والرضاب: البرد. والطل: المطر الضعيف.

(٢٨) أوحى: أسرع.

(٢٩) يراد: ابتسم.

(٣٠) جنح الليل — بضم الجيم وكسرها — لغتان: جانبه، وهذان البيتان والذي قبلهما لإمام العبد — رحمة الله عليه.

(٣١) مفلوكًا ومحدودًا ومحارفًا: كلها بمعنى المحروم البائس المقتَّر عليه في الرزق.

(٣٢) العيش المرمق: الدون اليسير. وعيش رمق: أي يمسك الرمق. والبرض: الشيء القليل. والتبرض: التبلغ بالقليل من العيش. وأخرات الإبر: ثقوبها.

(٣٣) البيتان لإمام العبد.

(٣٤) الهلع: الجزع. ووهل واستوهل: ضعف وفزع وجبن.

(٣٥) هر الزمان، من هر الكلب: نبح وكشر عن أنيابه.

(٣٦) ضرع إليه: خضع وذل. وعرق العظم: أكل ما عليه من اللحم. وعرقته الخطوب: أخذت منه ونالت. قال:

أَجَارَتَنا كلُّ امرئٍ ستُصيبه حوادثُ إلا تَبتُر العظمَ تَعرُقِ

(٣٧) اللأواء: الشدة.

(٣٨) يئودها: يكرثها ويجهدها ويشق عليها. وبوس: مخفف «بؤس»: الفقر وشدة الحاجة والضر وما إليها.

(٣٩) البابة: الوجه.

(٤٠) مستسرة: ما استسر وخفي.

(٤١) الأخادع: جمع أخدع، وهما أخدعان: عرقان في جانبي العنق قد خفيا وبطنا. واستقامة الأخادع: عبارة عن الإقلاع عن الكبر.

(٤٢) جحاجح: جمع جحجاح، وهو السيد الكريم.

(٤٣) طم: علا، وغمر. والقرى: مدفع الماء من الربوة إلى الروضة، ومثل هذا المثل: جاء السيل فطم الركى. والركى: الآبار.

(٤٤) الكلفة: حمرة كدرة تعلو الوجه، أو النمش. والبرص والبهق: معروفان.

(٤٥) من عيوب السودان أن أكفهم عابسة متشققة، وأطرافهم ليست بناعمة لينة، وكذلك لا يزال الفلح في شفاههم — وهي الشقوق الموجودة في أوساط الشفاه — وكذلك ترى السود متهمة بخبث العرق، فنفى ابن الرومي هذه الصفات عن هذه السوداء.

(٤٦) السمور: حيوان بري يشبه ابن عرس وأكبر منه، ولونه أحمر مائل إلى السواد، يُتخذ من جلده فراء ثمينة، وربما أُطلق السمور على جلده. والفراء: بائع الفراء. والدلق: حيوان يقرب من السنور في الحجم، وهو أصفر اللون، بطنه وعنقه مائلان إلى البياض.

(٤٧) الغوالي: جمع غالية: أخلاط من الطيب. والسك ضرب من الطيب يُركب من مسك ورامك.

(٤٨) العنق: ضرب من السير وهو اسم من أعنق: أي أسرع.

(٤٩) اليقق: الشديد البياض. والنسق: المنسق، يُقال در نسق وكلام نسق وثغر نسق: أي منتظم.

(٥٠) الفلق: الصبح. وتفرى: انشق.

(٥١) الحق ذو سلم وذو نفق: أراد أن الحق يتصرف في جهات، وضرب الصعود والنزول لذلك مثلًا. وحلكته: سواده.

(٥٢) يُقال: وقع القوم في حيص بيص: أي في اختلاط من أمر لا مخرج لهم منه، قال الجوهري: وحيص بيص: اسمان جُعلا واحدًا وبُنيا على الفتح، مثل جاري بيت بيت،

وقيل: إنهما اسمان من حيص وبوص جُعلا واحدًا، وأُخرج البوص على لفظ الحيص ليزدوجا. والحيص الرواغ والتخلف. والبوص: السبق والفرار، ومعناه: كل أمر يتخلف عنه ويفر.

(٥٣) أم دفر: هي الدنيا، وأصل الدفر: النتن خاصة، ويقال: دفرًا دافرًا لما يجيء به فلان: على المبالغة؛ أي نتنًا. ويقال للرجل إذا قبحت أمره: دفرًا دفرً؛ أي نتنًا.

(٥٤) لست منه في شيء ولا أميل إليه.

(٥٥) التبطل: فعل البطالة، وهو اتباع اللهو والجهالة.

(٥٦) اللاأدريون: فرقة من الفلاسفة يتوقفون في الحكم على الأشياء ويكثرون من قول «لا أدري»، وهم تابعون في فلسفتهم للفيلسوف اليوناني «بيرون» المولود في «أليس» من يونان سنة ٣٨٤ قبل الميلاد، وأساس فلسفته هو: أن الإنسان متى خرج من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وأراد أن يسبر غور خفايا الأشياء المحيطة به من كل جانب، فإنه لا يخلو حاله من أحد أمرين: فإما أن يصدق كل ما يراه ويستنتجه ويعده حقائق غير قابلة للنقض، وإما أن ينكر كل ذلك ويدعي أن ليس هناك شيء، ولا يخفى أن كلا هذين الأمرين يخرج بنا عن طبيعة الإنسان ويباين فطرته الأصلية. إذن فليس للإنسان إلا خطة الاعتدال، التي من مقتضاها الإحجام عن الحكم على الأشياء (راجع فلسفته في دوائر المعارف والرد عليه في كتب العقائد الإسلامية المطولة).

(٥٧) يُقال: عليه مسحة من جمال ومسحة عتق وكرم: أي شيء منه، ولا يُقال ذلك إلا في المدح، فلا يُقال: عليه مسحة قبح، وقال ذو الرمة:

عَلَى وَجْهِ مَي مَسْحَةٌ مِنْ مَلَاحَةٍ　　وَتَحْتَ الثِّيَابِ الخِزْيُ لَوْ كَانَ بَادِيَا

والشية: من الوشي، يقال وشى الكذب والحديث: صوَّره، ووشى كلامه: كذب، ثم استُعملت الشية في كل لون يخالف معظم اللون، قال تعالى: ﴿لا شية فيها﴾، أي ليس فيها لون يخالف سائر لونها.

(٥٨) يُقال شرق الموضع بأهله: امتلأ فضاق.

(٥٩) يزل: يزول، مضارع زال من الزوال. والداء العياء: الداء الذي لا دواء له.

(٦٠) الحمار.

(٦١) أي قبل كل شيء.

(٦٢) يبس الثرى بينك وبين فلان: إذا تقاطعتما، قال جرير:

فَلَا تَوْبِسُوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ الثَّرَى فَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ مُثْرِي

ومن ذا قولهم: ما بيني وبين فلان مثر: أي أنه لم ينقطع.

(٦٣) يُقال في الدعاء للمريض: مسح الله عنك ما بك: أي أذهبه، والحسيكة: الضغن والحقد، والإحن: جمع إحنة، وهي الضغينة والعداوة.

(٦٤) الصلصال: الطين اليابس. والحمأ: الطين الأسود. والمسنون: المتغير المنتن.

(٦٥) ثلبه ثلبًا: عابه وتنقصه.

(٦٦) الحمأ: الطين الأسود. وطين لازب: يلزق باليد لاشتداده.

(٦٧) البارحة: الشديدة المؤذية.

(٦٨) قيل: إن الشجرة التي نُهي آدم عن أن يقربها هي شجرة التين، وقيل: الحنطة، وقيل: الكرمة.

(٦٩) من كلمة حكيمة للحكيم الفيلسوف الأديب ابن الشبل البغدادي المتوفى ببغداد سنة ٤٧٤ هجرية، وإليك هذه الكلمة الجيدة البارعة برقتها:

بِرَبِّكَ أَيُّهَا الفَلَكُ المُدَارُ أَقَصْدٌ ذَا المَسِيرُ أَم اضْطِرَارُ
مَدَارُكَ قُلْ لَنَا فِي أَيِّ شَيْءٍ فَفِي أَفْهَامِنَا مِنْكَ انْبِهَارُ

انبهار: تحير.

وَفِيكَ نَرَى الفَضَاءَ وَهَلْ فَضَاءٌ سِوَى هَذَا الفَضَاءِ بِهِ تُدَارُ؟
وَعِنْدَكَ تُرْفَعُ الأَرْوَاحُ أَمْ هَلْ مَعَ الأَجْسَادِ يُدْرِكُهَا البَوَارُ

البوار: الهلاك.

وَمَوْجٌ ذِي المَجَرَّةُ أَمْ فِرِنْدٌ عَلَى لُجَجِ الدُّرُوعِ لَهُ أَوَارُ

المجرة: هي ما يُرى كأنه بياض معترض في السماء، والفرند: يقال للسيف ولمائه الذي يجري فيه وطرائقه. والأوار: وهج النار وشدة حر الشمس.

وَفِيكَ الشَّمْسُ رَافِعَةً شُعَاعًا   بِأَجْنِحَةٍ قَوَادِمُهَا قِصَارُ

القوادم: أربع ريشات في مقدم الجناح.

وَطَوْقٌ فِي النُّجُومِ مِنَ اللَّيَالِي   هِلَالُكَ أَمْ يَدٌ فِيهَا سُوَارُ

الطوق: حلي يُجعل في العنق وكل شيء استدار، والسوار — بكسر السين وضمها — جمع أسورة، وهو ما تتحلى به المرأة في يدها من ذهب وفضة.

وَشُهْبٌ ذِي الخَوَاطِفُ أَمْ ذُبَالٌ   عَلَيْهَا المَرْخُ يُقْدَحُ وَالعَفَارُ

الشهب: النجوم السبعة المعروفة بالدراري والتي تنقض بالليل، جمع شهاب، وفي الأصل الشعلة من النار. والخواطف: جمع خاطف، وسُميت خواطف من خطف البرق البصر: ذهب به، أو لأنها تخطف الشياطين الذين كانوا يسترقُّون السمع. والذبال: جمع ذبالة، وهي الفتيلة التي يصبح بها السراج. والمرخ: شجر كثير الورى سريعه، ومنه يكون الزناد الذي يُقتدح به، وكذلك العفار.

وَتَرْصِيعٌ نُجُومُكَ أَمْ حَبَابٌ   تُؤَلِّفُ بَيْنَهُ اللُّجَجُ الغِزَارُ

الترصيع: التركيب، يقال: تاج مرصع بالجواهر، ورصع العقد بالجوهر: نظمه فيه وضم بعضه إلى بعض. وحباب الماء: نفاخاته وفقاقيعه التي تطفو فوقه، أو الطرائق التي في الماء كأنها الوشى.

تُمَدُّ رُقُومُهَا لَيْلًا وَتُطْوَى   نَهَارًا مِثْلَ مَا طُوِيَ الإِزَارُ

الرقم في الأصل: الوشي والنقش، والضمير في «رقومها» للنجوم.

تَبَارَى ثُمَّ تَخْنُسُ رَاجِعَاتٍ   وَتَكْنِسُ مِثْلَ مَا كَنَسَ الصُّوَارُ

تباري — بحذف إحدى التاءين — أي تتبارى، والمباراة: المجاراة والمسابقة. والصوار — بضم الصاد وكسرها: القطيع من البقر. وتخنس: تغيب وتختفي. وكنست البقرة:

دخلت في كناسها إذا اشتد الحر. قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ قال الإمام الزمخشري: الخنس: الرواجع بينا ترى النجم في آخر البرج إذ كرَّ راجعًا إلى أوله. والجواري: السيارة. والكنس: الغيب، قيل: هي الدراري الخمسة: بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشتري، تجري مع الشمس والقمر وترجع حتى تختفي تحت ضوء الشمس، فخنوسها رجوعها، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس، وقيل: هي جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل، أي تطلع في أماكنها كالوحش من كنسها.

فَبَيْنَا الشَّرْقُ يَقْدُمُهَا صُعُودًا تَلَقَّاهَا مِنَ الغَرْبِ انْحِدَارُ

الشرق هنا: الشمس. ويقدمها: يتقدمها، أو تقول: الشرق: المشرق، ويقدمها: يقدمها.

عَلَى ذَا مَا مَضَى وَعَلَيْهِ يَمْضِي طُوَالُ مُنًى وَآجَالٌ قِصَارُ
وَأَيَّامٌ تُعَرِّقُنَا مُدَاهَا لَهَا أَنْفَاسُنَا أَبَدًا شِفَارُ

المدى: جمع مدية، الشفرة الكبيرة، وعرقته وتعرقته: أخذت اللحم عنه. والشفار: جمع شفرة، السكين أيضًا وحد السيف.

وَدَهْرٌ يَنْثُرُ الأَعْمَارَ نَثْرًا كَمَا لِلغُصْنِ بِالوَرْدِ انْتِثَارُ
وَدُنْيَا كُلَّمَا وَضَعَتْ جَنِينًا غَذَاهُ مِنْ نَوَائِبِهَا ظُؤَارُ

الظؤار: جمع ظئر، وهي المرضع.

هِيَ العَشْوَاءُ مَا خَبَطَتْ هَشِيمٌ هِيَ العَجْمَاءُ مَا جَرَحَتْ جُبَارُ

العشراء: الناقة لا تبصر ما أمامها، ومنه: هو يخبط خبط العشواء. وخبطت: وطئت. وهشيم: مهشوم. والعجماء: البهيمة. وجبار: هدر، يقال: ذهب دمه جبارًا: أي لم يُؤخذ بثأره.

فَمِنْ يَوْمٍ بِلَا أَمْسٍ لِيَوْمٍ   بِغَيْرِ غَدٍ إِلَيْهِ بِنَا يُسَارُ
وَمِنْ نَفْسَيْنِ فِي أَخْذٍ وَرَدٍّ   لِرُوحِ المَرْءِ فِي الجِسْمِ انْتِشَارُ
وَكَمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَلِفَتْ نُفُوسٌ   جُسُومًا عَنْ مَجَاثِمِهَا تُطَارُ

مجاثمها: أماكن جثومها.

أَلَمْ تَكُ بِالجَوَارِحِ آنِسَاتٍ   فَكَمْ بِالقُرْبِ عَادَ لَهَا نِفَارُ
فَإِنْ يَكُ آدَمٌ أَشْقَى بَنِيهِ   بِذَنْبٍ مَا لَهُ مِنْهُ اعْتِذَارُ
وَلَمْ يَنْفَعْهُ بِالأَسْمَاءِ عِلْمٌ   وَمَا نَفَعَ السُّجُودُ وَلَا الجِوَارُ

يشير بقوله ولم ينفعه بالأسماء علم ... إلخ، إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ❋ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ إلى آخر الآيات.

فَأُخْرِجَ ثُمَّ أُهْبِطَ ثُمَّ أَوْدَى   فَتُرْبُ السَّافِيَاتِ لَهُ شِعَارُ

أودى: مات. والسافيات: الريح تسفي التراب، أي تذروه.

فَأَدْرَكَهُ بِعِلْمِ اللهِ فِيهِ   مِنَ الكَلِمَاتِ للذَّنْبِ اغْتِفَارُ
وَلَكِنْ بَعْدَ غُفْرَانٍ وَعَفْوٍ   يُعَيَّرُ مَا تَلَا لَيْلًا نَهَارُ
لَقَدْ بَلَغَ العَدُوُّ بِنَا مُنَاهُ   وَحَلَّ بِآدَمٍ وَبِنَا الصَّغَارُ

الصغار: الهوان.

وَتِهْنَا ضَائِعِينَ كَقَوْمِ مُوسَى   وَلَا عِجْلٌ أَضَلَّ وَلَا خُوَارُ

الخوار: صوت البقر.

فَيَا لَكِ أَكْلَةً ... ...

... البيت

نُعَاقَبُ فِي الظُّهُورِ وَمَا وُلِدْنَا   وَيُذْبَحُ فِي حَشَا الأُمِّ الحِوَارُ

الحوار: ولد الناقة قبل أن يُفصل عنها.

وَنَنْتَظِرُ الرَّزَايَا وَالبَلَايَا   وَبَعْدُ فَبِالوَعِيدِ لَنَا انْتِظَارُ
وَنَخْرُجُ كَارِهِينَ كَمَا دَخَلْنَا   خُرُوجَ الضَّبِّ أَحْوَجَهُ الوَجَارُ

الوجار: الحجر.

فَمَاذَا الامْتِنَانُ عَلَى وُجُودٍ   لِغَيْرِ المُوجَدِينَ بِهِ الخِيَارُ
وَكَانَتْ أَنْعُمًا لَوْ أَنَّ كَوْنًا   نُخَيَّرُ قَبْلَهُ أَوْ نُسْتَشَارُ
أَهَذَا الدَّاءُ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ   وَهَذَا الكَسْرُ لَيْسَ لَهُ انْجِبَارُ
تَحَيَّرَ فِيهِ كُلُّ دَقِيقِ فَهْمٍ   وَلَيْسَ لِعُمْقِ جَرْحِهِمُ انْسِبَارُ

سبر الجرح: نظر مقداره وقاسه ليعرف غوره.

إِذَا التَّكْوِيرُ غَالَ الشَّمْسَ عَنَّا   وَغَالَ كَوَاكِبَ اللَّيْلِ انْتِشَارُ

كورت الشمس: غورت أو اضمحلت وذهبت، أو جمع ضوؤها ولُف كما تُلف العمامة. وغاله الشيء: أهلكه.

وَبُدِّلْنَا بِهَذِي الأَرْضِ أَرْضًا   وَطَوَّحَ بِالسَّمَاوَاتِ انْفِطَارُ

أصل الفطر: الشق، قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، أي: انشقت، وقال الشاعر:

شَقَقْتِ القَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتِ فِيهِ   هَوَاكِ فَلِيمَ فَالْتَامَ الفُطُورَ

وطوح به: ذهب به ههنا وههنا، يريد بهذا وبما بعده: يوم البعث.

وَأُذْهِلتِ المَرَاضِعِ عَنْ بَنِيهَا   لِحَيْرَتِهَا وَعُطِّلَتِ العِشَارُ

العشار من الأبل: التي قد أتى على حملها عشرة أشهر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال الفراء: لقح الأبل: عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم ولا يعطلها أهلها إلا في حال القيامة.

وَغَشَّى البَدْرَ مِنْ فَرَقٍ وَذُعْرٍ   خُسُوفٌ لِلتَّوَعُّدِ لَا سِرَارُ

السرار: الليلة التي يستسر فيها القمر؛ أي يختفي.

وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكُنَّ كُثْبًا   مَهِيلَاتٍ وَسُجِّرَتِ البِحَارُ

سيرت: أي على وجه الأرض. والكثب: جمع كثيب، قال تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ الكثيب: الرمل. والمهيل: المنثور بعضه فوق بعض. وسُجرت قيل: فجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرًا واحدًا، وقيل: مُلئت نيرانًا تضطرم لتعذيب أهل النار، وقيل: ذهب ماؤها حتى لا يبقى فيها قطرة.

فَأَيْنَ ثَبَاتُ ذِي الأَلْبَابِ مِنَّا   وَأَيْنَ مَعَ الرُّجُومِ لَنَا اصْطِبَارُ
وَأَيْنَ عُقُولُ ذِي الأَفْهَامِ مِمَّا   يُرَادُ بِنَا وَأَيْنَ الاعْتِبَارُ
وَأَيْنَ يَغِيبُ لُبٌّ كَانَ فِينَا   ضِيَاؤُكَ مِنْ سَنَاهُ مُسْتَعَارُ
وَمَا أَرْضٌ عَصَتْهُ وَلَا سَمَاءٌ   فَفِيمَ يَغُولُ أَنْجُمُهَا انْكِدَارُ
وَقَدْ وَافَتْهُ طَائِعَةً وَكَانَتْ   دُخَانًا مَا لِقَاتِرِهِ شَرَارُ

يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ الآية.

قَضَاهَا سَبْعَةً وَالأَرْضَ مَهْدًا   دَحَاهَا فَهْيَ لِلأَمْوَاتِ دَارُ

دحاها: بسطها أو أوسعها.

فَمَا لِسُمُوٍّ مَا أَعْلَا انْتِهَاءٌ   وَلَا لِسُمُوِّكِ مَا أَرْسَى قَرَارُ

سمك الشيء: رفعه.

وَلَكِنْ كُلُّ ذَا التَّهْوِيلِ فِيهِ　　لِذِي الأَلْبَابِ وَعْظٌ وَازْدِجَارُ

(٧٠) البيمارستان: المستشفى.

(٧١) الصابورة: ما يوضع في باطن المركب من الثقل ليثقل ولا يميل إلى جانبيه.

(٧٢) البوتقة: الوعاء الذي يذيب الصائغ فيه المعدن. والكير: الزق الذي يُنفخ فيه، والخبث من الذهب والحديد ونحوهما: ما نفاه الكير من غش وزيف وما لا خير فيه. والرنق: مثله.

(٧٣) الصفر: النحاس الجيد. والزلال: الخالص.

(٧٤) اهتبلتها: اغتنمتها.

(٧٥) يلاحظ أن هذا وصف لما كانت عليه الحال سنة ١٩٢٥م، أي عقب حادث السردار (المأسوف عليه سيرلي ستاك) المشئومة.

(٧٦) نزغ الشيطان بينهم: أفسد بينهم بالحث على الشر.

(٧٧) حميا كل شيء: شدته.

(٧٨) ذهبت ريحهم: ذهبت دولتهم.

(٧٩) التهانف: الضحك بسخرية.

(٨٠) جاء فلان ناشرًا أذنيه: طامعًا.

(٨١) غلوائهم: من غلواء الشباب، شرته وسرعته.

(٨٢) الإحن: الضغائن.

(٨٣) كبد: شدة.

(٨٤) التأث: اختلط والتبس.

(٨٥) إدة: فظيعة.

(٨٦) ولما: أي ولم تقطف بعد. وكأن قد: وكأنها قد قطفت.

(٨٧) يشير إلى الثورة المصرية سنتي ١٩١٨–١٩١٩، وإلى الاتحاد الذي كان في سنة ١٩٢٧ بين المغفور لهم: سعد زغلول، وحسين رشدي، وعدلي يكن، وعبد الخالق ثروت.

(٨٨) اصطلمت: استؤصلت.

(٨٩) الآلاقي: الشدائد.

(٩٠) مأتاته: المكان الذي يأتي من ناحيته ومصدره.

(٩١) لف لفهم: من عُد فيهم وانتمى إليهم.

(٩٢) غمطه: احتقره وازدراه.

(٩٣) أملى الله للظالم: أمهله. والطول: الحبل الذي يطول للدابة فترعى فيه، والطول أيضًا: التمادي في الأمر والتراخي، والمعنى ظاهر.

(٩٤) الأوزار: جمع وزر، الإثم والحمل الثقيل.

(٩٥) يقال: فلان مؤدم مبشر: إذا كان كاملًا من الرجال. وقال الأصمعي: هو الذي قد جمع لينًا وشدة مع المعرفة بالأمور، قال: وأصله من أدمة الجلد وبشرته، فالبشرة ظاهره وهو منبت الشعر، والأدمة باطنه وهو الذي يلي اللحم، قال: والذي يراد منه أنه قد جمع لين الأدمة وخشونة البشرة وجرب الأمور، وفي المثل: إنما يُعاتب الأديم ذو البشرة: أي يعاد في الدباغ، ومعناه: إنما يُعاتب مَن يُرجى وفيه مسكة وقوة، ويُراجع مَن فيه مراجع ... ويقال: فلان إدام قومه وأدم بني أبيه لثمالهم — غياثهم — وقوامهم ومن يصلح أمورهم.

(٩٦) أصل النعرة: الذباب الأزرق يتولع بالبعير ويدخل في أنفه فيركب رأسه، ثم استُعيرت للنخوة والأنفة والكبر، فيقال لكل مَن ركب رأسه: فيه نعرة، وفي رأسه نعرة.

(٩٧) نضا: نزع. والمجن: الترس وكل ما وقى من السلاح. ولبس جلد النمر، وقلب ظهر المجن: تحول عن الصداقة إلى العداوة وأسقط الحياء وفعل ما شاء.

(٩٨) الجدب: القحط وما قابل الخصب، وعن الحسن البصري في وصف ناس: أجدب قلوب وأخصب ألسنة.

(٩٩) صلدت: صارت صلدة لا تبض ولا تورى، ومن ذا يقال للبخيل: صلدت زناده.

(١٠٠) يقال: بلد فلان بعد نشاط: إذا فتر ونكس، قال الشاعر:

جَرَى طَلْقًا حَتَّى إِذَا قِيلَ سَابِقٌ   تَدَارَكَهُ أَعْرَاقُ سُوءٍ فَبَلَّدَا

(١٠١) يقال: لبست على كذا أذني، إذا سكت عنه ولم تتكلم وتصاممت عنه، قال ابن مفرغ:

فَلَبِسْتُ سَمْعَكَ ثُمَّ قُلْتُ أَرَى العِدَى   كَثُرُوا وَأَخْلَفَ مَوْعِدِي أَشْيَاعِي

(١٠٢) الأظل من الإبل: باطن المنسم — المنسم للبعير كالظفر للإنسان — ومن الإنسان بطن الإصبع، وفي المثل: إن يدم أظلك فقد نقب خفي، قال أبو عبيدة: يقال هذا إذا أراد المشكو إليه أنه في نحو مما فيه صاحبه الشاكي، أي إنني في مثل حالك.

(١٠٣) دحضت رجله: زلقت.

(١٠٤) المعمودية: اصطلاح مسيحي، وهي غسل الصبي وغيره بالماء باسم الأب والابن وروح القدس، قال صاحب المنجد: وهي أول أسرار الدين المسيحي وباب النصرانية.

(١٠٥) آض يئيض: صار. والصل: الحية الخبيثة جدًّا. والمسلاخ: الإهاب وقشر الحية الذي تنسلخ منه.

(١٠٦) الحرباء: دويبة على شكل سام أبرص، ذات قوائم أربع، دقيقة الرأس مخططة الظهر، يستقبل الشمس برأسه ويكون معها كيف دارت، يقال: إنما يفعل ذلك ليقي جسده برأسه، ويتلون ألوانًا بحر الشمس، والأنثى: الحرباءة.

(١٠٧) أبو براقش: طائر يتلون ألوانًا، شبيه بالقنفذ، أعلى ريشه أغبر، وأوسطه أحمر وأسفله أسود، فإذا انتفش تغير لونه ألوانًا شتى، قال الشاعر:

إِنْ يَبْخَلُوا أَوْ يَجْبُنُوا   أَوْ يَغْدِرُوا لَا يَحْفَلُوا
يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِـ   ـينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا
كَأَبِى بَرَاقِشَ كُلُّ لَوْ   نٍ لَوْنُهُ يَتَخَيَّلُ

وصف هذا الشاعر قومًا مشهورين بالمقابح، لا يستحون ولا يحتفلون بمن رآهم على ذلك، وقوله يغدوا: بدل من قوله لا يحفلوا؛ لأن غدوهم مرجلين دليل على أنهم لم يحفلوا. والترجيل: مشط الشعر وإرساله.

(١٠٨) فئام: جماعات.

(١٠٩) الطلاء: الخمر.

(١١٠) عبيثة ولويثة: ليسوا من أب واحد تهبشوا من أماكن شتى، ويقال لمن ليس له نسب معروف أو لا أصل ولا قوم ولا أب ولا شرف: ما يُعرف لهم مضرب عسلة.

(١١١) أي عرقت فيهم عرق سوء. وذو أشب: أي ذو اختلاط.

(١١٢) يقال: فلان حرب لي: أي عدو وإن لم يكن محاربًا.

(١١٣) الجالة والجالية: الذين جلوا عن أوطانهم.

(١١٤) اللبسة: الالتباس وعدم الوضوح.

(١١٥) الفلح: الشق والقطع.

(١١٦) أخو الشر: هو الخير، وأخو الخير: هو الشر.

(١١٧) العرض: موضع المدح والذم من الإنسان، سواء كان في نفسه أو سلفه أو مَن يلزمه أمره، وقيل: هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويُحامى عنه أن يُنتقص ويُثلب، وقال أبو العباس ثعلب: إذا ذُكر عرض فلان فمعناه أموره التي يرتفع أو يسقط بذكرها من جهتها بحمد أو ذم، فيجوز أن تكون أمورًا يوصف هو بها دون أسلافه، ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيبهم.

(١١٨) تحاموا ظلمه: تباعدوا عنه. وعز عنه: امتنع عنهم. والعزة: القوة والشدة. وجانباه: ناحيتاه. واحتمى: امتنع. ولان: ضعف وسهل. والأنباث: التراب المستخرج من البئر، يقال: نبث ينبث: إذ حفر. والسفا هنا: التراب، وهو ما تسفيه الريح، أي تحمله وترمي به، وقيل: السفا تراب القبر، والسفا في غير هذا: شوك البهمي (البهمي: نبات يشبه الشعير).

(١١٩) الحر من كل شيء: خياره وطيبه. والذماء هنا: الروح، يقال: أطول ذماء من الضب. والذماء في الأصل: بقية الروح، يقال: ما بقي منه إلا ذماء يتردد في خيال.

(١٢٠) يقال: فلان في رباوة قومه، وفي الروابي منهم: أي في أشرافهم وسرواتهم.

(١٢١) النكباء: الريح تنحرف عن مهاب الرياح وتقع بين ريحين.

(١٢٢) القعساء: الثابتة.

(١٢٣) أصل العيص: منبت خيار الشجر، قال جرير:

فَمَا شَجَرَاتُ عِيصِكَ فِي قُرَيْشٍ بِعِشَّاتِ الفُرُوعِ وَلَا ضَوَاحِي

وفلان في عيص أشب: أي في عز ومنعة في قومه، والأشب في الأصل: الشجر الملتف، ثم قالوا منه في أمثالهم، في استعطاف الرجل صاحبه على أقربائه وإن كانوا له غير مستأهلين: عيصك منك وإن كان أَشِبًا؛ أي وإن كان ذا شوك داخلًا بعضه في بعض، وهذا ذم، وقد يريدون المدح في مثل قول الشاعر:

وَلِعَبْدِ القَيْسِ عِيصٌ أَشَبُّ

لأنه يريد المنفعة والكثرة والعز والمنعة ... والفَعال — بفتح الفاء — المراد به هنا الكرم — ضد اللؤم — أما أهل اللغة فقد اختلفوا، فقال الليث: الفعال: اسم للفعل الحسن من الجود والكرم ونحوه، قال هدبة:

ضَرُوبٌ بِلِحْيَيْهِ عَلَى عَظْمِ زَورِهِ　　إِذَا القَوْمُ هَشُّوا لِلْفَعَالِ تَقَنَّعَا

وقال ابن الأعرابي والأزهري والمبرد: الفَعال يكون في المدح والذم، يقال: فلان كريم الفعال، وفلان لئيم الفعال.

(١٢٤) القناة: الرمح، والقناة أيضًا: القامة، يقال: فلان صلب القناة. والغمز: العصر باليد، قال الشاعر:

كَانَتْ قَنَاتِي لَا تَلِينُ لِغَامِزٍ　　فَأَلَانَهَا الإِصْبَاحُ وَالإِمْسَاءُ

وهذا مثل يريد أنه كان صلب العود شديد القوة على مَن يشتده ويجترئ عليه، والمراد هنا كذلك أنهم من القوة بحيث لا يؤثر فيهم مؤثر.

(١٢٥) تهضمه: ظلمه، وتهضمت نفسي له: إذا رضيت منه بدون النصفة والمعدلة.

(١٢٦) الجبورة: كالجبروت، الكبر الذي لا يرى صاحبه لأحد عليه حقًّا، قال:

فَإِنَّكَ إِنْ عَادَيْتَنِي غَضَبَ الحَصَى　　عَلَيْكَ وَذُو الجُبُورَةِ المُتَغَطْرِفُ

يقول هذا الشاعر: إن عاديتني غضب عليك الخليفة، وما هو في العدد كالحصى، والمتغطرف: المتكبر.

(١٢٧) يقال: هم سواسية: إذا استووا في اللؤم والخسة والشر، قال الفراء: يقال هم سواسية: أي يستوون في الشر، قال: ولا أقول في الخير. هذا ومن أمثالهم: سواسية كأسنان الحمار، وهو من أشد الهجاء؛ وذلك لأن أسنان الحمار مستوية، وهذا مثل ما رُوي في الحديث: «لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإذا تساووا هلكوا.» وأصل هذا أن الخير في النادر من الناس، فإذا استوى الناس في الشر ولم يكن فيهم ذو خير كانوا من الهلكى. وقيل: أراد بالتساوي: التحزب والتفرق، وأن لا يجتمعوا في إمام، ويدعي كل

واحد منهم الحق لنفسه فينفرد برأيه ... والعبادي: أي الرجل المنسوب إلى عباد، وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب، اجتمعوا على النصرانية فأنفوا أن يتسموا بالعبيد، وقالوا: نحن العباد، نزلوا الحيرة، ومنهم عدي بن زيد العبادي الشاعر.

(١٢٨) يقال لمن لا يصلح لخير ولا لشر ولا يُحفل به: لا في العير ولا في النفير. والعير: هي عير قريش — أي قافلتها وميرتها، والإبل التي تحمل تجارتها — التي أقبل بها أبو سفيان من الشام فنهد إليها المسلمون من المدينة وكانت غزوة بدر، وأما النفير فمن نفر من قريش ليدفع عن العير فجاءوا، وكانت وقعة بدر كما قلنا. وقد جاء هذا المثل في حديث طريف نورده هنا لروعته وجماله: رُوي أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدًا — وكان هذا خالد من رجالات قريش عقلًا وعلمًا وفصاحة — فقال: يا أخي لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك، فقال له خالد: بئس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين، فقال: إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغرني، فقال له خالد: أنا أكفيك، فدخل خالد على عبد الملك بن مروان والوليد عنده، فقال: يا أمير المؤمنين، الوليد ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها وأصغره — وعبد الملك مطرق — فرفع رأسه وقال: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون، فقال خالد: وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا، فقال عبد الملك: أفي عبد الله تكلمني؟ والله لقد دخل علي فما أقام لسانه لحنًا، فقال له خالد: أفعلى الوليد تعول؟ فقال عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان! فقال خالد: وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد؟ فقال له الوليد: اسكت يا خالد، فوالله ما قعد في العير ولا في النفير، فقال خالد: اسمع يا أمير المؤمنين، ثم أقبل على الوليد وقال: ويحك فمن العير والنفير غيري؟! جدي أبو سفيان صاحب العير، وجدي عتبة بن أبي ربيعة صاحب النفير، ولكن لو قلت: غنيمات وحبيلات والطائف ورحم الله عثمان، لقلنا: صدقت ... «قوله غنيمات وحبيلات: يعني أن رسول الله ﷺ لما أطرد الحكم بن أبي العاص بن أمية — وهو جد عبد الملك بن مروان — لجأ إلى الطائف، فكان يرعى غنيمات ويأوي إلى حبيلة، وهي الكرمة، وقوله رحم الله عثمان: أي لرده إياه.»

(١٢٩) يقال فلان يصغي إناء فلان: إذا نقصه ووقع فيه، قال:

فَإِنَّ ابْنَ أَخْتِ القَوْمِ مُصْغَى إِنَاؤُهُ إِذَا لَمْ يُمَارِسْ خَالَهُ بَأَبٍ جَلدِ

(١٣٠) الموطئون أكنافًا: يريد وصفهم بدماثة الخلق ولين الجانب، والثرثارون: يعني الذين يكثرون الكلام تكلفًا وتجاوزًا وخروجًا عن الحق، من قولهم: عين ثرة، أي كثيرة الماء. والمتفيهقون: من قولهم فهق الغدير: إذا امتلأ ماء، يريد أنهم يوسعون أشداقهم ويملأونها بالكلام.

(١٣١) ذو النورين: عثمان بن عفان. وأبو تراب: علي بن أبي طالب. وابن أبي سفيان: معاوية.

(١٣٢) ران عليه: غلب عليه.

(١٣٣) إحدى قصائده الخالدات.

(١٣٤) الوذيلة: المرآة.

(١٣٥) خرمه: نقصه. وأحيف: أجور.

(١٣٦) صداء: ركية — بئر — ليس عند العرب ماء أعذب من مائها، وفي المثل: ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان.

مأدبة جامعة في قصر الشيخ محمد عبده بالجنة

حدَّث الأديب الثقة قال:

وتعلَّم — علِمت الخير — أن أهل الجنة يتزاورون ويدعو بعضهم بعضًا، كأهل العاجلة؛ توفيرًا لأنسهم، وتتميمًا لمسراتهم، قال جل وعز: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ❊ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ❊ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ❊ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ❊ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ❊ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ❊ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ❊ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ❊ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ❊ قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ❊ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

قال الأديب: فلما انتهينا إلى هذا الموضع من الحديث، وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر مما رغب الإخوان أن يستطلعوا طلعه، ويقفوا عليه شئون مصر والمصريين، طلع علينا في الخيمة سرب من الحور العين، بجانبه فوج من الولدان المخلدين، وأخذوا يدعوننا واحدًا واحدًا إلى مأدبة كبرى أمر بصنعها الشيخ محمد عبده، وأدب إليها كثيرًا من أعيان الإسلام، وأئمته الأعلام، من فقهاء ووعاظ وعلماء، وفلاسفة وأدباء، وكتاب وشعراء، ولغويين وأطباء، ومغنين وملوك ومَن إليهم، فملت إلى الشيخ حمزة فتح الله وقلت له: هل هذه الدعوة دعوة الجَفَلَى أو دعوة النَّقَرى؟[١] فقال: إن هذه الدعوة وإن كانت دعوة النقرى، إلا أنها من قبيل غير القبيل الذي يبرأ منه طرفة بن العبد وينزه نفسه وقومه عنه، إذ يقول:

نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى   لَا تَـرَى الآدِبُ فِـينَـا يَـنْـتَـقِـرْ[٢]

إذ إن للشيخ محمد عبده غرضًا ساميًا نبيلًا يترامى إليه بهذه الدعوة ستعلم نبأه بعد حين.

قال الأديب: أما أنا فما كاد نبأ المأدبة يصافح أذني حتى كدت أذوب فرحًا، وأطير مرحًا، وأخذت أهرول أنا وإمام العبد، وانطلقت كالمهر الأرن في ميعة حضره،[٣] ولم لا يطير بنا الفرح، ولم لا يستخفنا الطرب، وهناك مأدبة فاخرة، وأفواه فاغرة، وجماعة من صفوة هذه الأمة الطاهرة؟ آه يا أخي آهة الرجل الحزين، إن نفسي تساقط حسرات على أثر ما قد فاتها من نعيم الفردوس، وعندي أنه لو لم يكن للآجلة على العاجلة من مزية سوى أن أهليها لا يضيرهم الطعام والشراب، فلا يصيبهم بَشم وتُخمة، وكظة وبردة، وغصص وشرق، ونزيف وصداع، وأذى وخمار،[٤] مهما طعموا وشربوا، لرجحت الأولى بالثانية، وشالت في الميزان كفة الفانية:[٥] ولكن تأبت الأقدار لحكمة بالغة إلا أن يشاب كل شيء في دار البلاء، بما يكدر صفوه، ويخبث عفوه،[٦] حتى الطعام والشراب:

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا   صَـفْـوًا مِـنَ الأَقْـذَاءِ وَالأَقْـذَارِ
وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا   مُتَطَلِّبٌ فِي المَاءِ جُذْوَةَ نَارِ

وإلا فهل هناك لذة تعدل لذة الشراب والطعام، ولا سيما لصحاح الأجسام، وإنها للذة على هذا متجددة تعاد في اليوم الواحد مرات، وتتكرر وجبات،[٧] وهي على تكرارها لا تمل، وعلى تردادها تحلو ولا تمر:

كَرِيقَةِ المَرْءِ لَا تَنْفَكُّ فِي فَمِهِ   وَمَا يَمَلُّ لَهَا طَعْمًا لِإِبَّانِ[٨]

من عذيري أيها الناس[٩] من لحوم الطير وسائر الحيوان البري منه والبحري، والإنسي والوحشي، ومَن لي بالفواكه على وفرة صنوفها، والخضر على تنوع أنواعها وضروبها، وما أُحيلى الحلواء والفطائر، وسائر ألوان هذه الأشباه والنظائر، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق …

وألم يُغرِ ربُّك آدم بالخلود في الجنة بأن قال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾.[١٠]

فبدأ باشتراط الشبع. ولله عبد الله بن عباس إذ يقول: كُلْ ما شئت والبس ما شئت ما أخطأك إسراف ومخيلة،[١١] وإذا كان هناك — عَمْرَكَ اللهَ[١٢] ووقاك — مَن هو جدير بالرحمة والرثاء، فليس أحق بذلك من المعود، والممنوِّ بأدواء البطون،[١٣] وإنه ليعجبني الرجل قد أُوتي حُمة القرم وبالغ اللقم،[١٤] فتراه يحط في الطعام[١٥] ويعصف فيه عصف الريح، حتى لكأنه تمساح من التماسيح، ويضرب فيه كما يضرب الولي السوء في مال اليتيم، ويتملأ منه حتى ينطفئ نهمه، وتنتأ رمانته،[١٦] لا ذلك المتنوق المترف الأزوم[١٧] الذي أخذه الإباء فتراه يخط في الطعام خطًّا[١٨] … وإذا جاز لي أن أحسد أحدًا على ما أتاه الله من فضله فلست أحسد إلا ذلك النهم الحطمة المبطان[١٩] الذي أُوتي معدة شيطانها رجيم، على شريطة أن تسعده الحال، ولا يؤذيه الأكال:[٢٠]

لَوْ أَكَلَتْ فِيلَيْنِ لَمْ تَخْشَ البَشَمْ

ومَن لي بذلك النبوغ الكرشي، وتلك العبقرية المعوية التي أوتيها معاوية والحجاج وسليمان بن عبد الملك،[٢١] وعبيد الله بن زياد ومَن على شاكلتهم من نوابغ الآكلين، لقد أوتوا من دواعي اللذة الحظ العظيم! وهل هناك — أنار الله بصيرتك — أسخف من جماعة النباتيين، وإن لي مع شيخهم شيخ المعرة لحديثًا سيمر بك بعد حين، وكيف لا يعذر المعتر[٢٢] المحروم إذا تهالك على لذيذ المطعوم، وما أظرف ذلك الأعرابي الذي لا عهد له إلا بالشيح والقيصوم،[٢٣] ولسان حاله يقول:

الأَبْيَضَانِ أَبْرَدَا عِظَامِي الـمَاءُ وَالفَتُّ بِلَا إِدَامِ

وقد حضر طعامَ أحد الأمراء وأكل معه، فلما أُحضر الفالوذج[٢٤] قال له الأمير: إن أكلت هذا حززت رأسك، فأطرق مليًّا، ثم مد يده إليه وقال: أوصيك أيُّهذا الأمير بصبيتي خيرًا … ومثله الأعرابي الذي آكل يومًا معاوية، فأخذ شيئًا من بين يديه، فقال له معاوية: لقد انتجعت، فقال الأعرابي: مَن أجدب انتجع![٢٥] ثم أُحضر جدي حنيذ،[٢٦] فأخذ الأعرابي يمزقه ويمعن في أكله، فقال معاوية: يا هذا، أتطالب هذا البائس بِذَحْلٍ[٢٧] هل نطحتك أمه؟ قال: وأبيك إنك لشفيق عليه! هل أرضعتك أمه! وكان لزياد بن عبد الله

الحارثي جدي لا يمسه أحد، فعشَّى في شهر رمضان قومًا منهم أشعب، فعرض أشعب يومًا للجدي من بين القوم، فقال زياد حين رُفعت المائدة: أما لأهل السجن إمام يصلي بهم؟ قالوا: لا، قال: فليصل بهم أشعب، فقال أشعب: أوغير ذلك أيها الأمير؟ قال: وما هو؟ قال: لا آكل لحم جدي أبدًا ... وهل يعيب التطفيل وينتقص المتطفلين إلا كل أحمق مأفون ... إن التطفيل ثورة معوية حارة تلظى على المترفين ... ولكنها ثورة سلمية سائغة مقبولة متواضعة، كل سلاحها وجه وقاح وشيء من إراقة ماء الوجه ... على أنه لا يدعو هذا السلاح «إراقة ماء وجه» إلا أنا وأنت، أما رجال الفن ... أما مَن تدعوهم متطفلين، فلا يغدو ذلك في رأيهم أن يكون «تقاضي حق» من أناس قد أمعنوا في ترفهم، ولم يرضخوا للمحزومين بلماظة من حقوقهم:[٢٨]

يَبِيتُونَ فِي المَشْتَى مِلَاءٌ بُطُونُهُمْ   وَجَارَاتُهُمْ سُغْبٌ يَبِتْنَ خَمَائِصَا[٢٩]

ولحا الله أبا عَمْرَة،[٣٠] ولا أبعد غيره، إنه شر ما يُمنى به المرء في دنياه، وما أفظع الإنسان إذا نقنقت ضفادع بطنه، وعض الصفر على شراسيفه بنابه وسِنِّه.[٣١]

أطعموا الجائعين أيها الناس، واتقوا صولة الإنسان إذا نال منه سعار الجوع، وإلا ثار ثائره عاصفًا بكم بعد طول هجوع ...

هوامش

(١) يقال دعاهم النقرى: إذا دعا بعضًا دون بعض، ينقر باسم الواحد بعد الواحد، وإذا دعا جماعتهم فهي دعوة الجفلى.

(٢) في المشتاة: يعني وقت الجدب. والآدب: الداعي.

(٣) الأرن: النشيط المرح. وميعة الحضر: أوله وأنشطه. والحضر: الجري.

(٤) البشم والتخمة: ما يصيب الإنسان من الطعام من ثقل. والكظة: البطنة، كظة الطعام والشراب: إذا ملأه وغمه حتى لا يطيق التنفس. والبردة: التخمة وثقل الطعام على المعدة، وفي الحديث: «أصل كل داء البردة.» والغصص: من غص بالطعام، اعترض في حلقه شيء منه فمنعه التنفس. والشرق بالماء ونحوه: كالغصص بالطعام. والنزيف: ذهاب العقل من السكر. والخمار: بقية السكر.

(٥) شال الميزان: ارتفعت إحدى كفتيه، والكلام على المثل: والمراد لفضلت الآخرة على الدنيا.

(٦) عفو كل شيء: ما صفا منه.

(٧) الوجبات: جمع وجبة: الأكلة الواحدة في اليوم.

(٨) إبان: وقت.

(٩) أي مَن يعذرني إذا أنا أُولعت بهذه الأشياء.

(١٠) ولا تضحى: لا تصيبك شمس مؤذية، قال عمر بن أبي ربيعة:

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالعَشِيِّ فَيَخْصُرُ

فيخصر: فيبرد ويؤذيه البرد.

(١١) المخيلة: الاختيال والزهو والكبر.

(١٢) عمرك الله: أي سألت الله أن يطيل عمرك، قال الكسائي: عمرك الله: نُصب على معنى عمرتك الله: أي سألت الله أن يعمرك، كأنه قال: عمرت الله إياك.

(١٣) ممعود: ذربت معدته فلم تستمرئ ما يأكله. وممنو: مصاب. وأدواء: جمع داء.

(١٤) القرم: شدة شهوة اللحم حتى لا يصبر عنه. وحمته: شدته. واللقم: جمع لقمة.

(١٥) يحط في الطعام: يكثر منه.

(١٦) النهم: الشره وإفراط الشهوة في الطعام، ويقال: أكل حتى نتأت رمانته: وهي السرة وما حولها.

(١٧) المتنوق: المتأنق المترفق. والمترف: من الترف وهو التنعم. والأزوم: القليل الرزء من الطعام.

(١٨) يأكل شيئًا يسيرًا.

(١٩) رجل حطمة: أكول.

(٢٠) الأكال: الطعام.

(٢١) حدَّث الشمردل وكيل آل عمرو بن العاص قال: قدم سليمان بن عبد الملك الطائف، وقد عُرفت شراهته، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز وأيوب ابنه بستانًا لعمرو، قال فجال في البستان ساعة ثم قال: ناهيك بمالكم هذا مالًا، لولا جرار فيه؟ فقلت يا أمير المؤمنين: إنها ليست بجرار ولكنها جرب الزبيب، فجاء حتى ألقى صدره على غصن ثم قال: ويلك يا شمردل! أما عندك شيء تطعمني؟ قلت: بلى والله، إن عندي لجديًا تغدو

عليه بقرة وتروح أخرى، قال: أعجل به، فأتيته به كأنه عكة — وعاء السمن — وتشمر فأكل ولم يدع ابنه ولا عمر حتى أبقى فخذًا، فقال: يا أبا حفص هلم، قال: إني صائم، ثم قال: ويلك يا شمردل، أما عندك شيء؟ فقلت: بلى والله دجاجات ست كأنهن رئلات النعام — أولاد النعام، واحدها رأل — فأتيته بهن فكان يأخذ رجل الدجاجة حتى يعري عظمها ثم يلقيها بفيه، حتى أتى عليهن ثم قال: ويلك أما عندك شيء؟ فقلت: بلى والله إن عندي لحريرة — الحريرة ضرب من الطعام يُتخذ من الدقيق يطبخ بلبن أو دسم — كقراضة الذهب، فقال: أعجل بها، فأتيته بعس — العس: القدح الكبير — يغيب فيه الرأس، فجعل يتلقمها بيده ويشرب، فلما فرغ تجشأ كأنه صاح في جب، ثم قال: يا غلام، أفرغت من غدائنا؟ قال: نعم، قال: وما هو؟ قال: نيف وثمانون قدرًا، قال: فأتني بها قدرًا قدرًا، فأتاه بها وبقناع عليه رقاق — القناع إناء من عسب النخل يوضع فيه الطعام — فأكثر ما أكل من قدر ثلاث لقم وأقل ما أكل لقمة، ثم مسح يده واستلقى على فراشه، وأذن للناس ووضعت الخوانات فجعل يأكل مع الناس.

(٢٢) المعتر: الفقير أو المتعرض للمعروف من غير أن يسأل.

(٢٣) الشيح: نبات مر طيب الرائحة معروف. والقيصوم: نبات مر طيب الرائحة معروف لأهل البادية.

(٢٤) الفالوذج: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل.

(٢٥) الانتجاع والنجعة في الأصل: طلب الكلأ ومساقط الغيث، وفي المثل: مَن أجدب انتجع.

(٢٦) الحنيذ: المشوي.

(٢٧) الذحل: الثأر.

(٢٨) رضخ له من ماله رضخًا: أعطاه قليلًا من كثير. واللماظة: تُستعار لبقية الشيء القليل، قال:

وَمَا زَالَتِ الدُّنْيَا يَخُونُ نَعِيمُهَا   وَتُصْبِحُ بِالأَمْرِ العَظِيمِ تَمَخَّضُ
لَمَاظَةُ أَيَّامٍ كَأَحْلَامِ نَائِمٍ   يُذَعْذِعُ مِنْ لَذَّاتِهَا المُتَبَرِّضُ

المتبرض: المتبلغ.

(٢٩) المشتى: وقت القحط والمجاعة. وسغب: جياع. وخمائص: ضامرات البطون جوعًا.

(٣٠) أبو عمرة: كناية عن الجوع.

(٣١) نقنق الضفدع: صوَّت صوتًا يفصل بينه مد وترجيع، ونقنقت ضفادع بطنه: كناية عن الجوع. والصفر — فيما تزعم العرب — حية في البطن تعض الإنسان إذا جاع، واللذع الذي يجده عند الجوع من عضه. والشرسوف: طرف الضلع المشرف على البطن، ويقال: عض الصفر على شرسوفه: إذا جاع.